الفصل السابع عشر

الأسباب الرئيسية التى يمكن أن تؤدى إلى صيانة الجمهورية الديمقراطية فى الولايات المتحدة

الولايات المتحدة جمهورية ديمقراطية . والهدف الرئيسى من هذا الكتاب شرح الأسباب التى أدت إلى قيام هذه الجمهورية . وقد أغفلت فيما سبق ، ذكر العديد من هذه الأسباب على غير إرادة منى ، أو أشرت إليها إشارة عابرة فحسب ، فى أثناء سيرى فى الموضوع . وثم أسباب أخرى لم أستطع تناولها بحال من الأحوال . أما ما أسهبت فى ذكره من الأسباب فقد بقى مغموراً فى جزئيات هذا الكتاب وتفصيلاته .

فلا غرو إن رأيت من الخير قبل الكلام عن المستقبل ، أن أجمل فى حيز صغير الأسباب التى تفسر الحاضر . وسأوجز القول فى هذا الفصل الذى أستعرض فيه ما سبق ، وسأحرص على أن أذكّر القارىء ، بشكل مجمل كل الإجمال ، بما سبق أن مر به وعرفه . وسأقتصر على إبراز الحقائق التى لم أذكرها من قبل .

فمن الميسور وضع جميع الأسباب التى تعاون على صيانة الجمهورية الديمقراطية والمحافظة على الولايات المتحدة تحت رؤوس ثلاث :

١ - الموقع الخاص والعرضى ، الذى وضعت فيه العناية الإلهية الولايات المتحدة .
٢ - القوانين .
٣ - آداب الشعب وعاداته الأخلاقية .

الأسباب العرضية أو التى شاءت العناية الإلهية أن تضع فيها الولايات المتحدة والتى عاونت على صيانة الجمهورية الديمقراطية فيها

ليس للاتحاد جيران - ولا عاصمة كبرى فيه - تصادف أن جاء مولد الأمريكيين فى مصلحتهم - أمريكا بلاد خالية - كيف عاون هذا الظرف معاونة طيبة على صيانة الجمهورية الديمقراطية فى أمريكا - كيف سكن الناس القفار والبرارى الأمريكية - جشع الأمريكيين الإنجليز فى الاستيلاء على مجاهل الدنيا الجديدة - تأثير الرخاء المادى على آراء الأمريكيين السياسية .

قامت ظروف كثيرة ، مستقلة عن إرادة البشر ، فيسرت قيام جمهورية ديمقراطية فى الولايات المتحدة . وبعض هذه الظروف معلوم ، والبعض الآخر يسهل بيانه ، ولكنى سأقتصر هنا على الظروف الأساسية وحدها .

ليس للأمريكيين جيران ، ومن ثم لم يكن أمامهم حروب كبيرة يواجهونها ، ولا أزمات[١] مالية ، ولا غزوات وفتوح يخشونها ، ولا هم بحاجة إلى فرض ضرائب مرهقة ، ولا إلى جيوش جرارة ولا إلى قواد عظام . وليس ثَمَّ ما يخافونه من آفة أشد خطراً على الجمهوريات من جميع تلك الشرور مجتمعة ، وأقصد بها آفة المجد الحربى . ومن ذا الذى ينكر ما لهذا المجد من تأثير خفى فى نفسية الشعب : فالجنرال جاكسون[٢] الذى انتخبه الأمريكيون مرتين لرياسة حكومتهم رجل حاد الطبع متوسط المواهب ، ليس فى حياته كلها ما يدل على أنه يتحلى بالصفات التى تؤهله لحكم شعب حر . والواقع أن أغلبية الطبقات المستنيرة فى الاتحاد كانت تقاومه دائماً ، ولكنه لم يرتفع إلى مرتبة الرئاسة ، ولم يستبق فيها ، إلا من جراء ذكرى انتصار حربى كان قد ناله منذ عشرين سنة مضت عند أسوار مدينة نيو أورليانز ، وهو انتصار عادى فى الواقع ، وما كان ليذكره أحد إلا فى دولة يندر حصول المعارك فيها . فالشعب هذا الذى ازدهته أوهام المجد ، لا شك أكثر الشعوب قدرة على التروى الهادى ، وعلى أن يحسب لكل شىء حسابه ، وهو أقلها ميلاً إلى الأمور الحربية .

هذا وليس لأمريكا عاصمة كبرى[٣] يشعر الناس بما لها من سلطان مباشر ؛ أو غير مباشر فى طول البلاد وعرضها .. وفى اعتقادى أن هذا من أول الأسباب التى أدت إلى صيانة المؤسسات الديمقراطية فى الولايات المتحدة . ليس من السهل منع الناس من أن يتجمعوا فى المدن بعضهم مع بعض ، تجمعاً مثيراً يستفزهم إلى اتخاذ قرارات عاجلة ، فلا بأس من أن نعد المدن أشبه بمجالس كبرى ، أعضاؤها السكان ؛ ولهؤلاء السكان تأثير عميق على الحكام ، وكثيراً ما ينفذون رغباتهم دون حاجة إلى تدخل الموظفين العامين .

فإخضاع الأقاليم للعاصمة معناه وضع مصائر الإمبراطورية كلها فى أيدى جزء من الجماعة فحسب ، وهو أمر غير عادل ، بل فى أيدى ملأ يجرى وراء تحقيق دوافعه ونزواته ، وهو أمر خطير كل الخطر . فسيادة العواصم الكبرى مضرة إذن بالنظام النيابى ضرراً بليغاً ، وهى تعرض الجمهوريات الحديثة لنفس الآفة التى سبق أن تعرضت لها الجمهوريات القديمة التى هلكت كلها بسبب جهلها بهذا النظام .

من اليسير علىَّ أن أذكر أسباباً ثانوية أخرى كثيرة عاونت على قيام الجمهورية الديمقراطية فى الولايات المتحدة . وتضافرت على صيانتها والمحافظة عليها ، ولكنى أرى هذه

---

(١) لم تخل أمريكا من الأزمات المالية ، فقد عانت من أزمتين فى النصف الأول من القرن التاسع عشر فى ١٨١٧ ، ١٨٣٧ .

(٢) أندرو جاكسون الرئيس السابع للولايات المتحدة وقد انتخب للرياسة مرتين فعلاً (١٨٢٩ - ١٨٣٧) وكان مولده فى مارس ١٧٦٧ ووفاته فى يونيه ١٨٤٥ .

(٣) لم تكن واشنطن مدينة كبيرة وقتئذ . فهى لم تصبح كذلك إلا منذ أوائل القرن الحالى أى سنة ١٩٠٠ ، فقد كانت فلادلفيا هى العاصمة المؤقتة وبعد أن وقع الاختيار على الموضع الذى تقام فيه العاصمة الجديدة ، أرسى جورج واشنطن أساسها فى سبتمبر سنة ١٧٩٣ وانتقل إليها رئيس الجمهورية لأول مرة فى يونيه ١٨٠٠ وكان جون أدمز . أما أول رئيس حتفل به فيها فهو توماس جفرسون

الظروف الكثيرة السعيدة تتلخص فى سببين هامين ، أسارع إلى ذكرهما . فقد سبق أن أشرت إلى أن أصل الأمريكيين أو ما سميته نقطة بدايتهم ، يصح أن يعد أول تلك الأسباب التى أدت إلى ازدهار الولايات المتحدة ، وأنجعها جميعاً . فقد تصادف أن جاء مولد الأمريكيين فى مصلحتهم، وكان آباؤهم قد استوردوا إلى البلاد تلك المساواة فى الأحوال الاجتماعية ، وفى الشئون العقلية ، وهى التى منها نشأت الجمهوريات الديمقراطية بطبيعة الحال . وليس هذا كل ما فى الأمر . فضلاً عن تساوى أحوال المجتمع فى الجمهورية ، فقد ورَث المستوطنون الأول ذراريهم العادات والأخلاق والآراء التى تؤدى أكثر من سواها ، إلى نجاح جمهوريتهم . وكلما فكرت فى هذه الحقيقة الأولية خيل إلى أنى أرى مصائر أمريكا ممثلة فى أول مظهر (بوريتانى) مست قدماه شواطئها ، يمثل آدم الجنس البشرى كله.

وأهم تلك الظروف السعيدة التى عاونت فى إقامة جمهورية ديمقراطية فى الولايات المتحدة ، وعلى صيانتها ، طبيعة ذلك الإقليم الذى اختار الأمريكيون أن يعيشوا فيه . لقد وهبهم أجدادهم حب المساواة وحب الحرية . ولكن الله نفسه وهب لهم الوسائل المؤدية إلى جعلهم متساوين ، وأحراراً ، وذلك بأن هيأ لهم السكنى فى قارة لاتحد . فالرخاء العام يعاون على استقرار أية حكومة ، ولا سيما الحكومة الديمقراطية التى تقوم على إرادة الأغلبية ، وبخاصة على ذلك الجزء من المجتمع الذى يتعرض أكثر من سواه للحاجة والعوز . فإذا ما تولى الشعب الحكم ، وجب أن توفر لهم أسباب السعادة ، وإلا قلبوا الدولة رأساً على عقب ، ودفعهم البؤس إلى التطرف . ذلك الذى قد تدفع المطامح الملوك إليه . فالعوامل الطبيعية ، بله القوانين ، التى تساعد على الرخاء العام ، تتوافر فى أمريكا أكثر مما تتوافر فى أى قطر آخر من أقطار هذه الدنيا . وفى أى عصر من العصور . فليس التشريع فى الولايات المتحدة ديمقراطياً فحسب . ولكن الطبيعة نفسها تساند قضية الشعب وترعى مصالحه .

ترى فى أى عصر من عصور التاريخ تستطيع أن تجد شيئاً يشبه ما يجرى الآن تحت سمعنا وبصرنا فى أمريكا الشمالية؟ لقد نشأت كل الجماعات المشهورة فى العصور القديمة ، وسط أمم معادية لها ، وكانت مضطرة إلى إخضاع هذه الأمم قبل أن تحل مكانها ، وتزدهر فيه . وحتى المحدثين أنفسهم وجدوا فى بعض أجزاء أمريكا الجنوبية أقاليم مترامية الأطراف تسكنها شعوب دونهم حضارة . ولكنها مع ذلك قد احتلت البلاد وزرعت أراضيها - فلكى تستطيع هذه الجماعات أن تقيم دولها الجديدة ، كان لابد لها من أن تبيد عدداً كبيراً من السكان ، أو أن تخضعهم لسلطانها . مما جعل وجه الحضارة يندى خجلاً من نجاحها . أما أمريكا الشمالية فلم يكن يسكنها سوى عدد من القبائل الرحل التى لم يخطر ببالها أن تستفيد من الكنوز الطبيعية التى فى بطون تربتها . فقد كانت تلك البلاد المترامية الأطراف لاتزال قارة خالية من السكان حقاً ، وفى انتظار من يجىء ليسكنها ويستقر فيها .

كل شيء فى أمريكا خارق للعادة والمألوف : حالة السكان الاجتماعية فيها ، وقوانينها ؛ ولكن الأرض التى قامت عليها هذه المؤسسات كانت أغرب من كل شيء . فعندما وهب الله الناس الأرض كانت تربتها خصيبة خصباً لاينفد ، ولكن الناس كانوا ضعفاء وجهلاء ، فلما تعلموا أن يستفيدوا مما فى بطون الأرض من ذخائر وكنوز ، كانوا قد انتشروا على سطحها أيماً انتشار ، وسرعان ما اضطروا إلى أن يكسبوا بسيوفهم ملجأ يلوذون به ويتمتعون فيه بحريتهم ، وفى ذلك الوقت حدث أن استكشف الناس أمريكا كأنما كان الله قد احتفظ لهم بها ، وكأنى بها قد ظهرت لهم من قيعان مياه الطوفان .

وما زالت تلك القارة حافلة إلى اليوم ، بما كانت تحفل به فى العصور الخالية من أنهار تخرج من عيون ثرارة لاتغيض مياهها ، ومجاهل ندية خضر ، وحقول لاحد لها ، لم يحدث أن قلبت تربتها سكين المحراث بعد . فهذه القارة ، بحالتها تلك ، تقدم الآن للإنسان – لا الإنسان الهمجى ، الجاهل ، المنعزل الذى كان فى العصور الأولى – بل الإنسان الذى ألم بأهم أسرار الطبيعة ، واتحد مع أمثاله ، حنكته وخبرة خمسين قرنا من الزمان . وفى ذلك الوقت نفسه كان ثلاثة عشر مليوناً[1] من الأوربيين المتحضرين ينتشرون فى ربوع تلك الأودية الخصيبة ، التى لم يعرفوها بعد معرفة وثيقة .. وثم ثلاثة آلاف جندى أو أربعة ، يطاردون أولئك الأقوام الرحل من سكان البلاد الأصليين ، فيتبعهم الرواد يشقون الغابات ويفزعون الوحوش والسباع ، ويطردونها من عُرُنها ، ويستكشفون مجارى الأنهار ، ويعدون موكب الحضارة للسير فى طريق النصر عبر القفار والصحارى .

لقد أكثرت من الإشارة فى أثناء هذا الكتاب إلى ما للرخاء والازدهار المادى فى أمريكا من أثر طيب على مؤسساتها . وقد سبقنى كثيرون إلى ذكر هذا السبب ، فهو السبب الوحيد المعهود للأوربيين ، إذ أنه يدرك بالحس والعيان ، فلا حاجة لى إذن إلى الإسهاب فى موضوع كثيراً ما تناوله الناس وفهموه الفهم الجيد ، فحسبى أن أضيف إلى بحوثهم بضع حقائق جديدة . فثم فكرة خاطئة شاعت بين الناس أن صحارى أمريكا يسكنها مهاجرون أوربيون ممن ينزلون كل سنة على شواطىء الدنيا الجديدة ، على حين يزداد عدد السكان الأمريكيين ويتضاعفون على الأراضى التى كان أجدادهم قد زرعوها من قبل . إن المهاجر الأوربى يصل إلى الولايات المتحدة من غير أصدقاء عادة ، وكثيراً ما يأتى إليها من غير موارد . فكى يعيش ، يضطر إلى أن يعمل أجيراً عند غيره ، وقلما يبعد عن منطقة السكان الكادحين التى تقع على مقربة من سيف المحيط . هذا ، ولا يخفى أن أحوال الصحراء لايمكن أن تستكشف من غير رأس المال . أو قروض ؛ ويجب أن يكون من يستكشفونها ممن تعودوا قسوة المناخ الجديد ، قبل أن يتعرضوا للتوغل فى أعماق

---

(١) عدد سكان أمريكا قبيل زيارة المؤلف : ١١،٣٤٨،٤٦٢ منهم ١،٨٣٨،١٥٥ من العبيد

الغابة . فالأمريكيون أنفسهم هم الذين يهجرون المواطن التى ولدوا فيها ونشأوا ، للسعى وراء الحصول على أرض فسيحة فى إقليم ناء بعيد . وهكذا يترك المهاجر كوخه فى أوربا ، ويأتى ليسكن على شواطىء المحيط الأطلسى ، على حين أن الأمريكى الذى ولد ودرج على هذه الشواطىء عينها يلقى بنفسه فى مجاهل أمريكا الوسطى . فهذه الهجرة المزدوجة مستمرة لاتنقطع ، فهى تبدأ فى وسط أوربا ، وتعبر المحيط الأطلسى . ثم تتقدم فى مجاهل الدنيا الجديدة ، فترى ملايين من الناس يسيرون معاً نحو أفق بعينه ، لغتهم ودينهم وآدابهم فى السلوك كلها مختلفة ، أما غرضهم فواحد . إنهم على موعد مع الحظ فى مكان ما فى الغرب . فغرباً يسيرون ، لعلهم يعثرون بما وعدوا به .

ليس ثمة حدث يمكن أن يقارن بانتقال الجنس البشرى المتواصل هذا ، اللهم إلا غزوات البرابرة التى أدت إلى سقوط الإمبراطورية الرومانية . ففى ذلك الوقت ، كما هى الحال الآن ، قد أكرهت حشود من الناس أن يتجهوا هذا الاتجاه نفسه ، وأن يتقابلوا ويصطرعوا فى المواضع ذاتها . ولكن تدبير العناية الإلهية لم يكن مثل هذه التدبيرات نفسها ، فقد كان كل وافد يجلب معه الموت والدمار . أما الآن فهو يجلب معه عناصر الرخاء والسعادة والحياة . إن المستقبل مازال يخفى عنا فى ضميره النتائج البعيدة المدى التى تترتب على هجرة الأمريكيين هذه نحو الغرب ، ولكن حسبنا لمحة خاطفة لندرك نتائجها المباشرة . فلما كان جزء من السكان يغادر الولايات التى ولدوا فيها ، لم يعد سكان هذه الولايات يزدادون إلا ببطء ، رغم أنه مضى عليهم فيها زمن طويل منذ تأسيسها،ففى ولاية « كنيتيكت » التى لاتزال كثافة السكان فيها لاتزيد على ٥٩ ساكناً فى كل ميل مربع ، لم يزد عدد سكانها بأكثر من الربع فى أربعين سنة ، على حين ازداد سكان إنجلترا نحو الثلث فى المدة عينها . فالمهاجر الأوربى صار ينزل دائماً فى بلاد نصف مملوءة بالسكان ، حيث العمال مطلوبون . فلا غرو إن اشتغل عاملاً فى ظروف رخية . أما ابنه فيمضى قدماً يسعى وراء حظه فى بلاد غير مأهولة ، ولا يلبث أن يصبح صاحب أملاك وأموال . فالأول يجمع الأموال التى يستثمرها الثانى ، فلا الغريب ولا الذى من أهل البلاد عرف شيئاً عن الحاجة والعوز .

إن قوانين الولايات المتحدة صالحة كل الصلاح لتقسيم الملكية ، ولكن سبباً أقوى من القانون يمنع الإفراط فى هذا التقسيم . وهذا مشاهد بشكل واضح فى الولايات التى أخذ عدد سكانها يتكاثف بسرعة . فولاية مساتشوستس ، أكثر ولايات الاتحاد سكاناً ، لاتحتوى إلا على ثمانية سكان فى الميل المربع ، وهو أقل بكثير مما فى فرنسا ، إذ بها ١٦٢ ساكناً فى المساحة عينها . ولكن الضياع فى مساتشوستس قلما تنقسم وتتوزع ، فالابن الأكبر يرث الأراضى عادة ، على حين يذهب إخوته الأصغر منه للبحث عن حظهم فى المجاهل والبرارى . لقد ألغى القانون حق توريث الابن الأكبر وحده ، ولكن ظروفاً عدة

تجمعت لتعيد هذا القانون إلى قوته على نحو لا يشكو منه أحد ، ولا يظلم أحداً أى حق من حقوقه العادلة .

وحسبنا حقيقة واحدة لبيان العدد الهائل من السكان الذين يغادرون نيوإنجلند ليستقروا فى الغرب . لقد أكدوا لى فى سنة ١٨٣٠ أن ثلاثة وستين عضواً من أعضاء الكونجرس ولدوا فى ولاية كنيتيكت الصغيرة ، فيكون سكان هذه الولاية ، وعددهم لا يعدو جزءاً من ثلاثة وأربعين جزءاً من عدد سكان الولايات المتحدة ، يرسلون ، إلى الكونجرس $\frac{١}{٨}$ (ثمن) أعضائه ، أما ولاية كنيتيكت نفسها فلا ترسل إليه منها سوى خمسة نواب ، ويجلس الواحد والثلاثون عضواً الآخرون نواباً عن الولايات الغربية الجديدة . فلو بقى هؤلاء الواحد والثلاثون شخصاً من كنيتيكت لكان من المحتمل أن يظلوا عمالاً فقراء يعيشون فى خمول لا أن يرتفعوا إلى المشاركة فى الحياة العامة ، وبدلاً من أن يكونوا مشرعين نافعين ، كان يمكن أن يظلوا مواطنين غير صالحين متمردين يصعب حكمهم .

لم تفتنى ملاحظة هذه التأملات ، كما لم تفت ملاحظتها الأمريكيين أنفسهم . فقد قال المستشار كنت (Kent) فى كتابه عن القانون الأمريكى : « إن أى تقسيم للضياع ، لابد أن يؤدى إلى شرور كثيرة إذا ما أفرط فى تقسيمها إفراطاً كبيراً يجعل كل جزء من الأرض لا يكفى لإعالة أسرة واحدة . ولكن لم يشعر بهذه المساوىء أحد قط فى الولايات المتحدة ، إذ لابد من مضى عدة أجيال قبل أن يشعر بها الناس . فاتساع أقاليمنا المعمورة ووفرة الأراضى المجاورة ، وتيار الهجرة المستمر من شواطىء المحيط الأطلسى إلى داخل البلاد مازالت كافية حتى الآن ، وستظل كافية مدة طويلة لمنع تفتيت الضياع فى البلاد » .

ليس من السهل وصف نهم الرجل الأمريكى واندفاعه وراء الحصول على هذه الغنائم الهائلة التى يتيحها الحظ ، فهو فى سعيه وراءها لا يخشى أن يعرض نفسه لسهام الهنود الحمر ، ولا للأمراض الفاشية فى الغابات ؛ فهو لا يستوحش من صمت الغابة ، ولا يتعكر صفوه من اقتراب الوحوش الكاسرة منه ، ذلك لأن رغبة أعظم من رغبة الحياة نفسها تدفعه . فأمامه قارة لا تحد ، فيظل يسعى قدماً كأن الوقت ضيق أمامه ويخشى ألا يجد مكاناً لجهوده . لقد تحدثت عن الولايات القديمة ، ولكن كيف أتحدث عما يجرى فى الولايات الحديثة ؟ لم تكد تمضى خمسون سنة على تأسيس ولاية أوهايو ، ولم تكن الكثرة من سكانها ممن ولدوا فيها ، ولم تتأسس عاصمتها إلا من ثلاثين سنة ، وما زال أغلبها أراضى واسعة صالحة للزراعة بكراً لم تمسها يد بعد ، ومع ذلك فسكان أوهايو أخذوا يتجهون غرباً . فمعظم الذين استقروا فى مراعى إلينوى الخصيبة من أهالى أوهايو . لقد ترك هؤلاء الرجال بلادهم الأولى سعياً وراء تحسين مراكزهم ، ولسوف يتركون بلادهم ثانية زيادة منهم فى تحسينها كذلك ، فالثروة تنتظرهم أينما يذهبون . أما السعادة فلا . لقد أضحت

الرغبة فى الازدهار ، ورغد العيش رغبة حادة ، قلقة فى نفوسهم ، وهى رغبة تنمو على نوع ما تتغذى به ، وقد سارعوا إلى فصم الأواصر التى تربطهم ببلادهم الأصلية التى ولدوا فيها ، ولم يعقدوا أواصر جديدة وهم فى طريقهم إلى منتجعهم الجديد . كانت الهجرة فى البداية أمراً لابد منه لهم ، ثم سرعان ما أصبحت ضرباً من ألعاب الحظ والمصادفات يقومون بها من أجل الانفعالات التى تستثيرها فى نفوسهم بقدر ما يقومون بها من أجل ما تحققه لهم من أرباح ومكاسب .

وقد يصبح تقدم الإنسان سريعاً حتى لتعود الصحراء تظهر وراءه ، وتنحنى الغابات أمامه لتفسح له طريقاً ، ثم تعود الأشجار وتنبت بعد اجتيازه غاباتهم . وكثيراً ما يقابل المرء فى عبوره ولايات الغرب الجديدة ، مساكن مهجورة وسط البرارى ، فكثيراً ما يستكشف السائح آثار بيت خشبى فى ناحية قصية منعزلة تشهد بقوة الإنسان كما تشهد بعدم ثباته واستقراره على شىء . فعلى تلك الحقول المهجورة ، وعلى تلك الأطلال التى لم تدم أصولها عشية وضحاها ، تنتشر الغابة البدائية الخضراء ، وتعود الوحوش تتردد على الأماكن التى كانت لها مأوى من قبل . ثم تأتى الطبيعة وتغطى على آثار الإنسان بفروع من الشجر محملة بالأزهار ، وهى آثار سريعة الزوال .

أذكر أنى فى أثناء ما كنت أقطع أرضاً مغطاة بالغابات التى لاتزال تكسو ولاية نيويورك ، بلغت شواطىء بحيرة ، فى قلب الغابة ، عمرها من عمر هذه الدنيا ، قامت فى وسطها جزيرة صغيرة حافلة بالغابات المورقة أشجارها ، التى تخفى شواطئها عن الناظرين ؛ ولم يكن على شواطىء البحيرة شىء يدل على أثر لإنسان فيها سوى عمود من الدخان يشاهد صاعداً عند الأفق وسط قمم الأشجار حتى يبلغ السحب ، فكأنه معلق فى السماء ، أو نازل منها لاصاعد إليها . وكان ثم قارب هندى ملقى على رمال الشاطىء ، مما أغرانى بزيارة الجزيرة التى استرعت انتباهى ، فلم تمض بضع دقائق حتى وطئت أقدامى ضفافها . فقد كانت الجزيرة كلها إحدى هذه البقاع البدائية المنعزلة فى الدنيا الجديدة ، والتى تكاد تجعل الإنسان المتحضر يتحسر على مأوى أخيه المتوحش ، فالنبات المتكاثف خير شاهد على خصب التربة التى لامثيل لها ، والصمت العميق الذى يخيم على قفار أمريكا الشمالية وصحاراها كلها لايخترقه إلا هدير حمائم الغابة النمطى ودقات نقار الخشب على لحاء الأشجار . لقد كنت بعيداً كل البعد عن أن أتصور أن هذه البقعة كانت مأهولة ، فقد تركت الطبيعة وشأنها تماماً فيها . ولكن عندما بلغت وسط الجزيرة خيل إلى أنى أرى آثار إنسان ، فمضيت أفحص عن الأشياء المحيطة بى بشىء من العناية ، وسرعان ما وجدت أن رجلاً أوربياً كان قد التجأ إلى هذا المكان ، ومع ذلك فما أكثر التغيير الذى حدث

فى مسرح نشاطه وأعماله ! فأرومات الخشب التى أعدها فى عجلة ليبنى لنفسه مأوى قد عادت ونبتت من جديد ، وكانت الأعمدة التى قام عليها بيته قد التف حولها النبات الأخضر ، وانقلبت عشته إلى أجمة من الشجر . وفى وسط هذه الأشجار ترى بضعة أحجار سوّدتها النيران ، وانتشر حولها الرماد الدقيق . فقد كان الموقد هنا ، ما فى ذلك من شك . فعندما تهدمت المدخنة ملأته بالحطام والكسارة . فوقفت برهة فى صمت وإعجاب من عظم الطبيعة وجلالتها وضآلة الإنسان ، وتفاهته . ولما اضطررت إلى مغادرة هذا المكان الرائع المنعزل صحت فى أسى وحزن : هل أصبحت الأطلال تقوم هنا أيضاً ؟ .

لقد ألف الناس فى أوربا أن يعدوا الميول القلقة والرغبة المفرطة فى اكتناز الأموال ، والإسراف فى محبة الاستقلال - ميولا خطرة كل الخطر على سلامة المجتمع - ومع ذلك فهذه العوامل نفسها هى التى تكفل للجمهوريات الأمريكية مستقبلاً طويلاً هادئاً ، فلولا هذه الرغبات العارمة لتجمع الناس فى بقاع معينة ، وسرعان ما يشعرون بمثل الحاجات التى يشعر بها سكان الدنيا القديمة ، وهى حاجات ليس من الهين إشباعها . وكان من حسن حظ الدنيا الجديدة أن رذائل سكانها ليست أقل صلاحية للمجتمع من فضائلهم . فهذه الظروف تؤثر أبلغ تأثير على تقدير أفعال البشر فى نصفى الكرة . فما يجب أن نسميه طمعاً ، كثيراً ما يسميه الأمريكيون جداً محموداً ، وماتقول الناس عنه فى أوربا أنه فضيلة العفة والاعتدال ، يسمونه فى أمريكا ضعفاً وخوراً فى العزائم .

يعتبر الناس فى فرنسا الأذواق البسيطة والعادات المنتظمة ، والمحبة العائلية ، وتعلق الناس بمسقط رأسهم ، ضمانات كبرى تكفل للدولة الهدوء والسعادة . أما فى أمريكا فلا شىء يبدو أضر بالمجتمع من أمثال هذه الفضائل . فالكنديون الذين انحدروا من أصل فرنسى ، والذين حافظوا كل المحافظة على عاداتهم القديمة ، أصبحوا يشعرون بأن إقليمهم الصغير قد ضاق بهم . فهذه الجماعة التى ظهرت فى الوجود من عهد قريب ستكون فى زمن نهباً للكوارث التى نزلت بالأمم القديمة ، فأكثر الكنديين استنارة ووطنية وإنسانية يبذلون جهوداً جبارة ليجعلوا الشعب غير قانع بهذه المتع البسيطة التى مازالوا راضين بها . فتراهم يشيدون بمغريات الثراء كل الإشادة ، ويتحمسون لها كل التحمس ، كما يتحمس الناس فى الدنيا القديمة لمباهج الحياة التى تتسم بالكفاية والاعتدال . وكذلك تبذل جهود أعظم لاستثارة المواطنين أكثر مما يبذل فى تهدئتها فى البلاد الأخرى . فإن نحن أصغينا إلى ما يقولون لأدركنا أن لاشىء عندهم أولى بالثناء من استبدال مباهج الغنى والرخاء العقيمة فى بلد أجنبى ، بالمسرات الحلال الهادئة التى يستطيع كل امرىء ، حتى الفقير ، أن يستمتع بها فى وطنه دون أن يغادر بيته الذى نشأ فيه ، والتراب الذى يرقد تحته أجداده . وفى الجملة ، فإنهم يدعون الناس إلى أن يهجروا الأحياء والأموات معاً ، حباً فى السعى وراء جمع الثروة واقتناء المال .

ففى أمريكا اليوم مجال واسع لنشاط الناس ، أوسع بكثير من جملة الجهود التى يمكن أن تنفق فى العمل فى تلك البلاد . فأنت لا تستطيع أن تستكثر فى أمريكا نشر أى مقدار من المعرفة مهما كان عظيماً . فكل معرفة تفيد صاحبها كما تفيد غير الملمين بها . ولا خوف هنا من احتياجات جديدة مادام سدها ميسورا ، فى غير مشقة ؛ ولا معنى للخوف من عرامة الرغبات البشرية ، فلكل رغبة منها ما يسدها فى يسر وعلى نحو مشروع . وليس الناس هنا أحراراً بأكثر مما ينبغى ، إذ يندر أن يجدوا ما يغريهم بأن يسيئوا استخدام هذه الحرية .

إن الجمهوريات الأمريكية لأشبه ما تكون فى الوقت الحاضر بجماعات من المغامرين تكونت للتنقيب معا فى أراضى الدنيا الجديدة البور ، وتشتغل فى تجارة ناجحة . فالشهوات التى تحرك الأمريكيين ليست شهوات سياسية ، بل تجارية ، أو بعبارة أخرى إنهم يدخلون عادات أصحاب الأعمال فى حياتهم السياسية . فهم يحبون ذلك النظام الذى بدونه لا يتسنى للأعمال أن تنجح . ويعلون بوجه خاص قيمة ذلك السلوك المنتظم الذى يعد أساس كل (أعمال) سليمة رصينة . فهم يفضلون الذوق السليم المؤدى إلى جمع ثروات ضخمة ، على تلك العبقرية المغامرة التى كثيراً ما تبعثر هذه الثروات . فالأفكار العامة تفزع عقولهم التى اعتادت أن تحسب لكل شىء حسابه بشكل إيجابى واقعى ، فهم يؤثرون النواحى العملية على الناحية النظرية كل الإيثار .

ففى أمريكا وحدها يدرك المرء فى يسر ما للرخاء المادى من تأثير فى الأمور السياسية ، بل وفى تلك الآراء التى يجب ألا تعترف بسلطان عليها غير سلطان العقل ؛ وهذه حقيقة يدركها الأجانب بوجه خاص . فمعظم الأوربيين الذين هاجروا إلى الدنيا الجديدة حملوا معهم حبهم للاستقلال وغرامهم بالتغيير ، ذلك الغرام العارم الذى كثيراً ما تخلقه فى النفوس تلك الكوارث التى تحل بنا فى أوربا . حدث أن قابلت ، فى الولايات المتحدة أوربيين اضطروا إلى مغادرة بلادهم بسبب آرائهم السياسية ، فأدهشونى جميعاً من اللغة التى سمعتها منهم . ولكن واحداً منهم أدهشنى أكثر من سائرهم . فبينما أنا أعبر بقعة نائية من بقاع بنسلفانيا إذ يدركنى الليل ، واضطرنى الأمر أن أطلب من مزارع ثرى أن يستضيفنى فى بيته ليلتى تلك . وكان رجلاً فرنسى المولد ، فدعانى للجلوس بجانب موقده ، وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث بتلك الحرية التى تلائم الأشخاص الذين يتقابلون وسط الغابات على بعد ألفى فرسخ من بلادهم الأصلية أو تزيد ، وكنت واثقاً من أن محدثى كان منذ أربعين سنة من المتحمسين للمطالبة بالمساواة بين الناس ، كما كان خطيباً شعبياً ، وأن اسمه من الأسماء التى يذكرها التاريخ . فلا غرو أن ذهلت عندما سمعته يتحدث عن حقوق الملكية كما يتحدث الاقتصادى ، أو صاحب الأراضى والضياع . فقد حدثنى عن ضرورة التدرج الذى يقيمه الحظ بين الناس ، وعن احترام القوانين المسطورة وإطاعتها ، وتأثير الأخلاق الطيب فى الجمهوريات ، وعن مساندة الدين للنظام والحرية .

ولقد بلغ به الأمر أن صار يستند فى أقواله إلى ما يقوله السيد المسيح تأييداً لرأى من آرائه السياسية .

أصغيت إليه ، فعجبت من ضعف العقل البشرى . كيف نستطيع أن نستكشف صدق قضية أو كذبها . وسط قضايا العلم غير اليقينية ، ووسط عِبَرِ الخبرة المتضاربة ؟ ولكن ثمة حقيقة واحدة قد تزيل عنى ما يساورنى من شكوك - لقد كنت فقيراً ، فأصبحت غنياً ، ولست أتوقع أن يؤثر الرخاء فى سلوكى ، فيتركنى حراً فى أحكامى على الأشياء والناس . والحق أن آرائى لتتغير بتغير حظى ، ففى الظروف السعيدة التى أستغلها فيما فيه مصلحتى اكتشفت الحجة القاطعة التى كانت تعوزنى من قبل .

هذا ، ويؤثر النجاح فى الأمريكيين تأثيراً واسع المدى ، أكثر مما يؤثر فى الأجانب ؛ فالأمريكى يرى النظام العام والرخاء العام مرتبطين دائماً بعضهما ببعض أوثق ارتباط ، ويسيران معاً جنباً إلى جنب أمام عينيه ، فهو لا يستطيع حتى أن يتصور أن أحدهما يمكن ، أن يوجد من غير الآخر . فليس لديه إذن شىء ينبغى أن ينساه ، ولا عليه ، مثل ما على الكثيرين من الأوربيين ، أن ينسى الدروس التى تعلمها فى صغره فى المدارس الابتدائية ويتعلم أخرى غيرها من نوع آخر .

تأثير القوانين فى صيانة الجمهورية الديمقراطية فى الولايات المتحدة

ثلاثة أسباب رئيسية لصيانة الجمهورية الديمقراطية - الاتحاد الفدرالى - مؤسسات وحدة الحكم المحلى - السلطة القضائية .

الغرض الأساسى من وضع هذا الكتاب ، التعريف بقوانين الولايات المتحدة ، فإن تحقق لنا هذا الغرض استطاع القارىء أن يحكم بنفسه فى شأن تلك القوانين التى تتجه حقاً إلى صيانة الجمهورية الديمقراطية ، وإلى القوانين التى تجعل كيان هذه الجمهورية فى خطر . أما إن جانبنى التوفيق ، ولم أنجح فى غرضى هذا من الكتاب فلا أمل فى أن أفعل ذلك فى فصل واحد فحسب . ولست أقصد هنا أن أعود أدراجى وأسلك الطريق التى سلكتها من قبل ، بل حسبى بضعة أسطر أوجز فيها ما سبق لى أن قلته .

يبدو أن هناك ثلاثة «ظروف» عاونت أكثر من غيرها على صيانة الجمهورية الديمقراطية فى الولايات المتحدة .

فأول هذه الظروف ، شكل الحكومة الفدرالى الذى اختاره الأمريكيون فمكّن الاتحاد من أن يجمع بين قوى الجمهورية العظيمة وأمن أخرى صغيرة .

وثانى هذه الظروف مؤسسات «وحدة الحكم المحلى» التى تعمل على تقييد استبداد الأغلبية والحد منه ، وفى الوقت نفسه تفسح المجال للشعب كى يتذوق الحرية ويلم بفن الاستمتاع بها .

أما ثالث الظروف فتأليف السلطة القضائية . وقد سبق أن أوضحت كيف استطاعت المحاكم أن تكبح إسراف الديمقراطية وتطرفها ، وتكف اندفاع الأغلبية وتوجهها ، وتمنعها من التهور ، دون أن تعطل شيئاً من نشاطها .

تأثير العرف والأخلاق فى المحافظة على الجمهورية الديمقراطية فى الولايات المتحدة

أشرت من قبل إلى أن الآداب التى يجرى عليها الشعب فى سلوكه ، يصح أن تعد سبباً من الأسباب العامة الكبرى التى تؤدى إلى صيانة الجمهورية الديمقراطية فى الولايات المتحدة . وسأستعمل لفظة العرف هنا (أو العادات الأخلاقية) بالمعنى الذى يستعمل القدامى فيه لفظة (mores) فلا أطلقها هنا على آداب اللياقة المعروفة فحسب - أى أن نسميه « بعادات القلب » ، بل أطلقها كذلك على الأفكار والآراء المختلفة الذائعة بين الناس ، وعلى جملة تلك الآراء التى تضفى على عقليتها صبغة خاصة يتميزون بها . ولذلك ضمنت هذه اللفظة كل أحوال الشعب الأخلاقية والعقلية . هذا ، ولست أبغى أن أرسم هنا صورة تفصيلية للعرف والأخلاق الأمريكية بل سأجتزىء بإبراز معالمها الكبرى التى تعاون على صيانة مؤسساتهم السياسية .

الدين باعتباره مؤسسة سياسية تعاون على صيانة جمهورية ديمقراطية بين الأمريكيين

يسكن أمريكا الشمالية أقوام يؤمنون بمسيحية جمهورية ديمقراطية -- مجىء الكاثوليك - لماذا تعد هذه الطائفة الآن أكثر الطوائف الدينية أخذاً بالديمقراطية الجمهورية .

يقوم إلى جانب كل دين ، رأى سياسى ينسجم معه . فلو ترك العقل البشرى وميوله ، لنظم المؤسسات الدنيوية والروحية كلها على طراز واحد ، ولحاول الإنسان أن يوفق بين أمور الدنيا وأمور الدين .

كان معظم سكان أمريكا البريطانية قد تخلصوا من سلطة البابا ، ولم يعترفوا لأحد بسلطة دينية أخرى عليهم . فقد كان دينهم الذى جاءوا به معهم إلى الدنيا الجديدة شكلا من المسيحية ، لايسعنى أن أصفه بأفضل من أنه دين ديمقراطى جمهورى ، عاون حق المعاونة على إقامة جمهورية ديمقراطية فى الشئون العامة ، وانعقدت منذ البداية محالفة لا تنفصم بين هذا وبين السياسة .

أخذت جماهير (الكاثوليك) تتدفق من أيرلندة على الولايات المتحدة منذ حوالى خمسين سنة ، وقام الأمريكيون الكاثوليك من جهتهم باجتذاب الكثير إلى مذهبهم الدينى ،

حتى أربى عدد المسيحيين الذين يتبعون الكنيسة الكاثوليكية على المليون . ومن المعلوم عن الكاثوليك أنهم يستمسكون بشعار دينهم ، ويتحمسون لعقيدتهم ، ويغارون عليها كل الغيرة ، ومع ذلك فهم أكثر طوائف الولايات المتحدة ميلاً إلى الديمقراطية والجمهورية . فلعل القارىء يدهش من ذلك لأول وهلة ، ولكن القليل من التفكير ييسر لنا معرفة أسباب ذلك .

ويخيل إلىَّ أن المذهب الكاثوليكى اعتبر خطأ على أنه يخاصم الديمقراطية ، ولكن الكثلكة تبدو لى ، على النقيض من ذلك ، أنها أكثر الطوائف المسيحية المختلفة مراعاة للمساواة فى أحوال الناس الاجتماعية . فالعشيرة الدينية فى الكنيسة الكاثوليكية تتكون من عنصرين اثنين ، هما القس والشعب ، فالقس وحده هو الذى تبوأ مرتبة تسمو على مستوى رعيته ، أما الذين دونه فكلهم سواسية .

ومن حيث العقائد الدينية الجزمية ، فالمذهب الكاثوليكى يعتبر جميع الناس فى مستوى واحد على الرغم من اختلافهم فى الذكاء ، ويفرض على كل من العالم والجاهل ، وعلى العبقرى وعادى الذكاء ، تفاصيل عقيدة واحدة ، كما يفرض مراعاة شعائر واحدة ، على الغنى والفقير معاً ، وكذلك يفرض نفس أنواع التقشف على القوى والضعيف سواء بسواء . ولا يعرف أى تساهل مع أحد من بنى الإنسان ، بل يعامل الجنس البشرى كله بمعيار واحد ، ويرفع عنهم جميع الفوارق الاجتماعية ، بقدر ما هى مرفوعة فى نظر الله . فإن كان المذهب الكاثوليكى يجعل المؤمنين به ميالين إلى الإذعان والطاعة فلا شك أنه لا يعدهم للتفاوت وعدم المساواة ، على حين أن ذلك لا يمكن أن يقال عن المذهب البروتستانتى الذى يؤدى عادة إلى جعل الناس مستقلين أكثر مما يجعلهم متساوين ، فالكثلكة أشبه بالملكية المطلقة ، فإن استبعدت الملك صارت كل طبقات المجتمع أكثر مساواة منها فى البلاد ذات النظم الجمهورية .

كثيراً ما يحدث أن يترك القسيس الكاثوليكى خدمة المحراب ويشترك فى السلطة مع أولى الأمر والنهى فى المجتمع ، ويتبوأ مكانته فى نظام السلم الاجتماعى ؛ وقد يستغل نفوذه الدينى أحياناً لصيانة الأوضاع السياسية التى ينتمى إليها هذا القسيس ، ومن ثم رأينا من الكاثوليك من ينضمون إلى صفوف الأرستقراطيين بدافع دينى . ولكن ، ما أن ينفصل القسس انفصالاً تاماً عن الحكومة ، كما هى الحال فى الولايات المتحدة ، حتى يتبين لنا أنه لا توجد طبقة من الناس تميل بالفطرة إلى نقل مذهب المساواة فى الأمور الاجتماعية إلى عالم السياسة بأكثر مما يميل إليه الكاثوليك .

فإن لم تكن معتقدات المواطنين الكاثوليك فى الولايات المتحدة قد دفعتهم قسراً إلى اعتناق المبادىء الديمقراطية والجمهورية ، فإنهم ليسوا بالضرورة من خصومها على الأقل . فمركزهم الاجتماعى فى البلاد ، وقلة عددهم يضطرهم اضطراراً إلى اعتناق هذه المبادىء ،

لأن معظمهم من الفقراء ، وليس أمامهم أية فرص ليشاركوا فى أعمال الحكومة بنصيب ، إلا إذا فتحت هذه الحكومة أبوابها لجميع المواطنين ، ذلك إلى أنهم أقلية فيجب أن يحترموا الحقوق جميعاً كى يضمنوا لأنفسهم الحرية فى ممارسة ميزاتهم الخاصة . فهذان السببان يحملانهم ، ولو على غير وعى منهم ، على اعتناق مذاهب سياسية ، من الجائز إن كانوا يؤيدونها بحماسة أقل مما يؤيدونها بها ولو كانوا أغنياء وأصحاب قوة وسلطان .

لم يحاول القسس الكاثوليك فى الولايات المتحدة أن يعارضوا أبداً هذا الاتجاه السياسى ، بل إنهم ليعملون على تبريره . لقد قسم رجال الدين الكاثوليك فى أمريكا عالم الفكر إلى قسمين : وضعوا فى قسم مبادىء الدين التى يرتضونها فى غير جدل أو نقاش ، ووضعوا فى القسم الآخر تلك الحقائق السياسية التى يؤمنون أن الله قد تركها مفتوحة للبحث الحر . ومن ثم كان الكاثوليك فى الولايات المتحدة أكثر المؤمنين خضوعاً وإذعاناً ، وأكثر المواطنين استقلالاً فى الوقت عينه .

فنستطيع أن نؤكد إذن أنه ليس فى الولايات المتحدة كلها مبدأ دينى واحد يناصب المؤسسات الديمقراطية والجمهورية أقل عداء . فرجال الدين فى مختلف الطوائف يتكلمون بلغة واحدة وآراؤهم تتفق مع القوانين ، وبذلك صار العقل البشرى يجرى قدماً فى اتجاه واحد غير متشعب .

حدث أن كنت مرة فى إحدى مدن الاتحاد الكبرى ، حيث دعيت لأشهد حفلة عامة أقيمت لمصلحة البولنديين[١] وترمى إلى معاونتهم بالمال . وتزويدهم بالسلاح . فوجدت ألفين أو ثلاثة آلاف من الناس قد اجتمعوا فى بهو فسيح أعد لاستقبالهم . وبعد قليل قام قس يرتدى ملابسه الكهنوتية ، وتقدم إلى صدر المنصة . فوقف الحاضرون حاسرى الرؤوس خاشعين ، وأخذ القس يتكلم . فقال :

« اللهم يا ذا الحول والقوة ، يارب الجيوش ! يامن قويت القلوب ، وأرشدت جيوش آبائنا وهم يناضلون من أجل حقوقهم المقدسة فى الاستقلال القومى ! يا من نصرتهم على الظلم البغيض ، ومنحت شعبنا نعمة الحرية والسلام ! اللهم اشمل النصف الثانى من هذه الكرة الأرضية بنظرة عطف منك - نظرة رفق بأمة باسلة ظلت تصارع

---

(١) كانت ألمانيا وروسيا والنمسا تآمرت فى القرن الثامن عشر على دولة بولندا (بولونيا) واقتسمتها فيما بينها . ولكن البولنديين لم يفقدوا الأمل فى استعادة استقلالهم . وقد أحيت الثورة الفرنسية ، ونابليون . ثم إسكندر الأول قيصر روسيا آمالهم فى الوحدة والاستقلال والحرية . ولكن شيئا من ذلك لم يتحقق لهم . ولما قامت ثورة يوليه فى فرنسا سنة ١٨٣٠ امتدت آثارها إلى كثير من الأمم الطامحة فى تحقيق قوميتها واستقلالها مثل بلجيكا وبولونيا وغيرهما فقامت حركة ثورية فى بولندا ، هاجر كثير من أهليها إلى مختلف البلاد الحرة . ولما أمر قيصر روسيانقولا الأول وكان على عكس أخيه . حاكما مستبدا بتحيد البولنديين لإرسالهم إلى الاشتراك فى قمع حركة بلجيكا الاستقلالية رفضوا وقاموا بانقلاب واستولوا على الحكم فى وارسو ، واشتدت ثورتهم العارمة على روسيا من يناير إلى سبتمبر ١٨٣١ حيث سقطت وارسو فى أيدى الروس .

حتى اليوم، كما صارعنا نحن من قبل من أجل الحقوق ذاتها ! يا من خلقت الإنسان على صورتك ، لاتذر الاستبداد يفسد ما أنجزت ، ويقيم التفاوت وعدم المساواة على هذه الأرض ، يا إلهنا القدير ! راع مصالح البولنديين ، واجعلهم جديرين بأن يكونوا أحراراً . سدد بحكمتك اللهم خطوات مجالسهم ، وأسند بقوتك جيوشهم! اللهم ألْقِ الرعب والفزع فى قلوب أعدائهم ، وشتت شمل القوى التى تأتمر بهم ! ولا تدع الظلم الذى لبث العالم يعانيه خمسين سنة يبلغ أقصاه فى أيامنا . اللهم يا من فى يديك القويتين قلوب الأمم وقلوب الرجال ، هيىء لهم حلفاء يدافعون عن قضية الحق المقدسة ، وأيقظ الأمة الفرنسية من خمولها ، الذى يعمل حكامها على استبقائها غارقة فيه ، حتى تهب من جديد فى سبيل الحرية فى هذا العالم .

« اللهم لاتشح بوجهك عنا ! اللهم اجعلنا أشد شعوب الأرض تقوى واستمساكاً بالدين ، وأكثرها حرية ! يارب ! يا من أنت على كل شيء قدير ، استجب دعواتنا هذا اليوم ! إنا لنضرع إليك باسم سيدنا عيسى المسيح ، ابنك الحبيب إليك ، الذى مات مصلوباً لإنقاذ الناس أجمعين ، أن تنقذ البولنديين ، آمين .

ورد جميع الحاضرين – آمين – فى تقوى وفى خضوع.

تأثير الآراء الدينية غير المباشر فى المجتمع السياسى فى الولايات المتحدة

جميع الطوائف المسيحية تأخذ بالأخلاق الدينية – تأثير الدين فى آداب السلوك عند الأمريكيين – احترام الرابطة الزوجية – كيف حصر الدين خيال الأمريكيين فى نطاق معين ، وقيد أهواءهم نحو الإبداع – رأى الأمريكيين فى فائدة الدين السياسية – جهدهم فى مد سلطانه ، وفى العمل على صيانته والمحافظة عليه .

فرغنا من بيان ما للدين من تأثير مباشر فى السياسة فى الولايات المتحدة ؛ أما تأثيره غير المباشر فأعظم من ذلك فى نظرى ، وأعمق . ولكن إرشاده الأمريكيين إلى فن الحرية لايكون أبداً أوْفى وأنجع إلا عندما لايذكر لهم شيئاً عن الحرية .

لاحصر للطوائف الدينية فى أمريكا . ومع أن هذه الطوائف تختلف بعضها عن بعض من حيث العبادة الواجبة للخالق ، فكلها تتفق من حيث الواجبات التى على الإنسان لأخيه الإنسان . إن كل طائفة منها تعبد الله على النحو الخاص بها ، ولكنها تقول جميعاً بقانون أخلاق واحد ، باسم الله . فإن كان من الأهمية الكبرى للإنسان من حيث هو فرد ، أن تكون ديانته حقة صادقة ، فليس الأمر كذلك بالنسبة للمجتمع . إذ ليس للمجتمع حياة أخرى يرجوها أو يخشاها . ومادام المواطنون يعترفون بدين ما ، فقواعد هذا الدين الخاصة ليست بذات أهمية كبرى للمجتمع نفسه . وزيادة على ذلك فجميع

الطوائف الدينية فى الولايات المتحدة تنضوى كلها تحت وحدة كبرى تشملها جميعاً ، هى المسيحية ؛ والأخلاق المسيحية ، كما لايخفى ، واحدة فى كل مكان .

ولا مانع من أن نصدق أن عددا معينا من الأمريكيين يتخذون لهم طريقة خاصة فى العبادة من جراء العادة ، أكثر مما يتخذونها عن اعتقاد . فالسلطة السائدة فى الولايات المتحدة دينية ، ومن ثم كان لامناص من أن يشيع الرياء بينهم ؛ ومع ذلك فليس ثمة بلد فى العالم تحتفظ فيه الديانة المسيحية بسلطان على نفوس الناس أكبر منها فى أمريكا ، وليس ثم دليل على فائدتها وملاءمتها للطبيعة البشرية من أن الناس فى أعظم أمم الأرض استنارة وحرية يشعرون بسلطانها عليهم شعورا قويا .

ذكرنا من قبل أن رجال الدين الأمريكى فى جملتهم ، ومن غير استثناء أولئك الذين لايسلمون بالحرية الدينية منهم ، يؤيدون جميعا الحرية الدينية ، ومع ذلك فهم لايؤيدون نظاما سياسيا معينا ، فلا غرو أن كانوا يبتعدون عن الأحزاب وعن الشئون العامة . فالدين فى الولايات المتحدة لايؤثر فى القوانين إلا تأثيرا ضئيلا . وكذلك تأثيره فى جزئيات الرأى العام وتفصيلاته ، ولكنه يوجه عادات الجماعة وينظم الدولة عن طريق شئون الحياة المنزلية .

لايساورنى أى شك فى أن مايشاهد من الخشونة الكبيرة فى الآداب المرعية فى الولايات المتحدة ، إنما ينشأ أولا وقبل كل شىء ، عن الإيمان الدينى . فكثيراً ما لايستطيع الدين أن يكف الناس عن كثير من المغريات والمحن التى تلقيها المصادفة فى طريقهم ، ولا هو يستطيع أن يكبح تلك الشهوة العارمة إلى الربح والمكاسب المادية التى يستثيرها فى نفوسهم كل شىء أمامهم . ولكن سلطان الدين على عقل المرأة عظيم ، ولا يخفى أن النساء حماة الأخلاق والآداب . وفى الحق ، لايوجد بلد فى العالم تحترم فيه رابطة الزوجية بقدر ما تحترم فى أمريكا ، ولا يوجد بلد تقدر فيه السعادة الزوجية بمثل ما تقدر أمريكا ، أما فى أوربا فجميع اضطرابات المجتمع تنشأ من اضطراب الحياة المنزلية والعلاقات الزوجية فيها ، فاحتقار الأواصر الطبيعية ، ومباهج البيت المشروعة معناه اكتساب ميل إلى الإسراف ، وإلى قلق النفس والانسياق فى الرغبات النابية غير المستقرة . لقد صار الأوربى ، وقد استثارته الشهوات الصاخبة التى كثيراً ما تعكر صفو بيته ، يتأذى من الطاعة التى تتطلبها منه سلطات الدولة التشريعية ، على حين أن الأمريكى إذا ما عاد من صخب الحياة إلى عقر بيته ، وجد فيه مثال النظام والطمأنينة . فمسراته فيه ساذجة وطبيعية ، ومباهجه بريئة وهادئة . وإذ يؤمن بأن الحياة المنظمة أضمن طريق إلى السعادة ، سارع إلى تعويد نفسه بسهولة على أن يكون معتدلاً فى آرائه وأذواقه . فعلى حين جاهد الأوربى فى نسيان متاعبه المنزلية ، يستمد الأمريكى من بيته حب النظام الذى يتبعه فيما بعد فى شئونه العامة .

لا يقتصر تأثير الدين فى الولايات المتحدة على أمور الآداب العامة وحدها ، بل يمتد إلى تفكير الشعب . فمن الامريكيين الإنجليز من يعترفون بمبادىء المسيحية عن اعتقاد ، سداه ولحمته الإخلاص ، على حين نرى آخرين يظهرون أنهم يعترفون بمبادئها حقاً ، ولكن خشية أن يتهموا بالإلحاد . فالمسيحية إذن تسيطر على الناس من غير أى حائل يعوقها ، وذلك يرضى الناس جميعاً وينال موافقتهم . فلا غرو إن كانت النتيجة - كما أشرت من قبل - أن كل مبدأ من مبادىء الأخلاق ثابت ومتعين على الرغم من ترك عالم السياسة لما يقوم به الناس من بحوث ويجرونه من تجارب . وهكذا لا يترك العقل البشرى أبداً يهيم فى مجال غير محدود . وأيًا كانت ادعاءاته ، فثم حواجز لا يستطيع أن يجتازها ، تكفه من حين إلى حين . فقبل أن يبتدع العقل شيئاً ما ، يجد أمامه بضعة مبادىء معينة أساسية . حتى إن أجرأ تصوراته لتخضع لأشكال معينة تؤخر إنجازها ، أو تمنعها منعاً باتاً .

إن خيال الأمريكيين ، حتى فى أسمى تحليقاته ، حريص ، يحتاط لنفسه ، وغير حاسم فيما يتصوره ، فاندفاعاته مقيدة . وأعماله ناقصة . فعادات القيد والكف هذه تتجلى فى المجتمع السياسى ، وتعاون كل العون على هدوء الشعب وعلى بقاء ما يقيمه من مؤسسات . فقد جعلت الطبيعة والظروف سكان الولايات المتحدة جسورين ، تشهد لهم بذلك روح المغامرة التى تدفعهم إلى السعى وراء الحظ والغنى . فإن كان عقل الأمريكيين حراً من كل ما يعوقه من عوائق ، فسرعان ما يصبحون أجرأ المخترعين ، وأكثر الناس فى العالم كله إمعاناً فى الجدل والنقاش . ولكن الثائرين فى أمريكا مضطرون أن يبدو احتراماً ظاهراً للآداب والعدالة المسيحية ، مما لا يسمح لهم بأن ينتهكوا اعتباطاً القوانين التى تتعارض مع مقاصدهم وتقف فى سبيلها ، ولا هم يجدون الأمر هنا هيناً عليهم أن يتغلبوا على ما يساور أنصارهم من شكوك ، حتى ولو استطاعوا أن يتغلبوا على شكوكهم هم . فلم يحدث أن تجرأ أحد فى الولايات المتحدة إلى الآن على أن يصرح علناً بأن كل شىء حلال ومباح مادام فى مصلحة الجماعة . فهذا قول فاسق ، ويبدو أنه قد اخترع فى عصر من عصور الحرية ليحمى جميع المستبدين فى المستقبل . وهكذا ، فبينما يسمح القانون للأمريكيين أن يفعلوا ما يشاءون فالدين يمنعهم أن يعملوا أى شىء فيه تهور وبعد عن الإنصاف ، بل إنه ليمنعهم من أن يخطر ذلك ببالهم .

لا يشترك الدين فى أمريكا اشتراكاً فعلياً فى حكم الجماعة ، ولكنه ، مع ذلك ، يجب أن يعد فى طليعة مؤسساتهم السياسية ، لأنه إن لم يعاون على خلق ميل إلى الحرية فإنه ييسر استخدامها . والحق أن سكان الولايات المتحدة ينظرون إلى الدين من وجهة النظر هذه عينها . ولست أدرى إن كان جميع الأمريكيين مخلصين فى إيمانهم بالدين . فمن ذا الذى يستطيع أن يسبر أغوار القلب البشرى ؟ ولكنى على يقين من أنهم يعتقدون أن الدين ضرورى لصيانة المؤسسات الجمهورية . وهذا الرأى ليس مقصوراً على طبقة معينة

من المواطنين ، ولا على حزب معين من أحزابهم . ولكنه يصدق على الأمة بأسرها ، وعلى كل مرتبة من مراتب الجماعة .

فإن حدث وهاجم أحد السياسيين فى الولايات المتحدة طائفة ما ، لم تكن هذه المهاجمة سبباً يمنع أنصار هذه الطائفة نفسها من تأييده . أما إذا هاجم الطوائف الدينية كلها جملة ، هجره الناس جميعاً وخلوه وحده .

فعندما كنت فى أمريكا ، قال شاهد ، استدعى لحضور جلسة عقدتها مقاطعة تشستر (فى ولاية نيويورك) - قال إنه لايؤمن بوجود الله ، ولا بخلود الروح . فلما سمع منه القاضى هذا القول رفض أن يأخذ بشهادته ، على أساس أن الشاهد قد هدم مقدماً كل ثقة المجلس فى جميع ماكان يريد أن يقوله . وذكرت الجرائد هذه الواقعة من غير أن تعلق عليها بشىء .

تربط فكرة المسيحية بفكرة الحرية فى عقول الأمريكيين ربطا وثيقاً حتى ليستحيل عليهم أن يتصوروا الواحدة من غير الأخرى . ولا ينشأ فيهم هذا الاعتقاد من الإيمان التقليدى العقيم الذى يبدو أنه يغفى فى الروح إغفاء بدلاً من أن يحيا فيها .

سمعت عن جمعيات كونها أمريكيون غرضها إرسال المبشرين إلى الولايات الجديدة التى فى الغرب ليؤسسوا المدارس ويقيموا الكنائس ، خشية أن يموت الدين فى تلك الأصقاع النائية ، وتصبح الدول الناشئة أقل أهلية للاستمتاع بالمؤسسات الحرة ، من الشعب الذى عنه صدروا . وصادفت أناساً أغنياء من نيوإنجلند غادروا البلد الذى ولدوا فيه كى يقيموا أسس المسيحية والحرية على ضفاف نهر الميسُورى ، أو فى برارى إللينوى . وهكذا يتبين لنا أن حرارة الوطنية تؤرث باستمرار الحماسة الدينية فى الولايات المتحدة وتشعلها . فهؤلاء الناس لايصدرون فى أفعالهم عن مجرد الاعتبارات المتصلة بالآخرة . فليست الأبدية سوى باعث واحد يدفعهم إلى الإخلاص لقضيتهم الدينية . فإن أنت تحدثت إلى واحد من مبعوثى الحضارة المسيحية هؤلاء لدهشت أن تسمع أنهم يكثرون من الحديث عن خيرات هذه الدنيا ، وعما فيها من مناعم ، ومن أنك تقابل سياسياً حيث توقعت أن تجد قسيساً . إنهم سيقولون لك « إن جميع الجمهوريات الأمريكية مرتبطة جملتها بعضها ببعض . فلو أن جمهوريات الغرب وقعت فى الفوضى ، أو تغلب عليها فرد مستبد يحكمها ، لأصبحت المؤسسات الجمهورية التى تزدهر على شواطىء المحيط الأطلسى فى خطر عظيم ، فمن مصلحتنا إذن أن تكون الولايات الجديدة متدينة حتى يتيسر لها أن تدعنا نظل أحراراً » .

تلك هى آراء الأمريكيين . فإن كان منهم من يعتقد أن الروح الدينية ، التى أعجبت بها ، هى الشىء الذى ينعونه على أمريكا ، وأن العنصر الوحيد الذى يعوز حرية الجنس البشرى وسعادته على العدوة الأخرى من المحيط أن نعتقد مع إسبينوزا بخلود الدنيا ،

ونعتقد مع كابانيس بأن المخ يفرز الأفكار إفرازاً - لا يسعنى ألا أن أجيب بأن أولئك الذين يقولون بذلك القول لم يزوروا أمريكا قط ، وأنهم لم يزوروا أمة متحضرة ولا أمة حرة . فإن هم عادوا من زيار ة لتلك البلاد ، فإنا سنصغى لهم عندئذ ونسمع ما يقولون .

ففى فرنسا نفر من الناس لا يرون فى المؤسسات الديمقراطية سوى وسيلة للحصول على العظمة والجاه . فتراهم يقيسون المسافة الشاسعة التى تفصل بين رذائلهم وبؤسهم ، وبين القوة والثراء ، ويهدفون إلى ردم هذه الهوة بالأنقاض ، كى يستطيعوا أن يجوزوا فوقها . أولئك هم رؤساء عصابات الحرية ، إنهم لا يحاربون إلا لما فيه مصلحتهم مهما كان المظهر الذى يظهرون به . فستظل الجمهورية أمداً طويلاً ، فى زعمهم ، حتى تستنقذهم مما هم فيه من انحطاط . فليس هؤلاء هم الذين أوجه إليهم الحديث . ولكن ثَمَّ غيرهم يتوقعون قيام شكل جمهورى من أشكال الحكم ، يستتب فيه الهدوء وتتجه إليه المجتمعات الحديثة مدفوعة بما فى العصر من آراء وآداب . فأمثالهم يرغبون مخلصين فى أن يهيئوا الناس للحرية . فإذا ما حدث وهاجم هؤلاء الرجال الآراء الدينية ، فهم إنما يجرون وراء ما تمليه عليهم شهواتهم ، لا مع ما تقتضيه مصالحهم . فقد يحكم الاستبداد من غير إيمان ، وبدون عقيدة ، أما الحرية فلا . فالدين أمر ضرورى للجمهورية التى يظهرونها فى مظهر رائع أخاذ ، أكثر منه فى الملكية التى يهاجمونها . ذلك إلى أن الحاجة إليه ، أشد فى الجمهوريات الديمقراطية منها فى غيرها . فكيف يتسنى للجماعة أن تتخلص من الدمار إن لم تعمل على تقوية الرابطة الأخلاقية بنسبة تراخى الرابطة السياسية ؟ وما عسى أن نصنع بشعب هم سادة أنفسهم ، إن لم يذعنوا لأوامر الله ؟

الأسباب الرئيسية التى قوَّت أثر الدين فى الولايات المتحدة

حرص الأمريكيين على فصل الكنيسة عن الدولة - تتفق القوانين والرأى العام ، وجهود رجال الدين أنفسهم ، على تأييد هذا الفصل - ينبغى أن يعزى تأثير الدين فى نفوس أهالى الولايات المتحدة إلى هذا السبب -لماذا- حالة الناس الطبيعية ، من حيث الدين فى عصرنا الحاضر - الأسباب الخاصة والأسباب العرضية التى تحول دون وصول الناس إلى هذه الحالة فى بعض البلاد .

شرح لنا فلاسفة القرن الثامن عشر ، بصورة مبسطة كل التبسيط ، تزايد ضعف الاعتقاد الدينى فى الناس ، فقالوا إن الحماسة الدينية يجب أن تخبو كلما ازدادت الحرية العامة ، وكلما انتشرت المعارف بين الناس . ولكن الحقائق لا تتفق وما قالوا . ففى أوربا أقوام لا شىء يعدل إلحادهم وعدم إيمانهم غير انحطاطهم[1] وجهلهم ، على حين نرى

(١) ترى إلى أية الجماعات أو أية الدول يشير المؤلف هنا ؟

الشعب فى أمريكا ، وهى من أكثر بلاد الله حرية واستارة ، لايزال مقبلاً على تأدية الشعائر الدينية كلها بحماسة .

فلما وصلت إلى الولايات المتحدة ، كانت الناحية الدينية أول ما استرعى نظرى فيها ، وكلما طال مكثى بها ، أدركت ما يترتب على هذه الحقائق الجديدة من نتائج سياسية خطيرة . فقد رأيت فى فرنسا أن روح الدين وروح الحرية تسيران دائماً فى اتجاهين متضادين أو تكادان ، على حين أنهما فى أمريكا متحدان أوثق اتحاد ، وتسيطران معاً على البلاد نفسها . لقد ظلت رغبتى فى الوقوف على أسباب هذه الظاهرة تشتد بى يوماً عن يوم ، فكى أرضى هذه الرغبة جعلت أسأل رجال الطوائف الدينية المختلفة ، وأسعى وراء صحبة رجال الدين خاصة ، إذ هم الذين ائتمنهم الناس على صيانة مختلف العقائد . وهم يحرصون كل الحرص على بقائها قائمة حرص من له فيها مصلحة شخصية . ولما كنت من أبناء الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، عنيت بالاتصال بالكثيرين من قسسها ووثقت بهم صلتى بوجه خاص ، وأبديت لكل واحد منهم دهشتى مما لاحظته ، وصارحته بما يساورنى من شكوك ، فإذا بهم جميعاً متفقون ، ولا يختلفون إلا فى التفصيلات . فكلهم عزوا سلطان الدين الهادىء على بلادهم إلى فصل الكنيسة عن الدولة فصلاً تاماً . ولا يسعنى هنا إلا أن أؤكد أنى لم أصادف طوال إقامتى بأمريكا شخصاً واحداً ، قسيساً كان أو علمانياً يختلف رأيه عن هذا الرأى .

ولما شرعت أدرس موقف القسس الأمريكيين فى المجتمع السياسى بعناية أكبر مما فعلت ، أدهشنى أن أجد أنهم لايشغلون أية وظائف عامة . فلم أجد واحدا منهم فى الإدارة ، وليس لهم حتى من يمثلهم فى المجالس التشريعية . بل إن القانون فى عدة ولايات ليستبعدهم عن الحياة السياسية ، ويستبعدهم عن الرأى العام ، فى سائر الولايات كذلك . ولما درست الروح السائدة بين القسس أنفسهم استبان لى أن الغالبية منهم يبدون كأنهم يتعدون من تلقاء أنفسهم عن ممارسة أية سلطة . ويعدونها مفخرة من مفاخر مهنتهم ألا يتدخلوا فى شئون السياسة وأن يظلوا بعيدين عنها .

وقد سمعتهم يستهجنون الطموح ، وسوء النية أيًا كانت الآراء السياسية التى تتستر وراءها هاتان الرذيلتان . وعرفت من أحاديثهم أن الناس لايعدون مجرمين فى نظر الله ، بسبب آرائهم السياسية ، مادامو مؤمنين بها مخلصين لها ، كما لايعدون فى نظره آثمين بسبب أخطائهم فى بناء منزل أو فى العمل بالمحراث . ولقد رأيت رجال الدين هؤلاء يتحاشون كل الأحزاب ، ويحرصون على الابتعاد عنها حرص من له مصلحة خاصة فى ذلك . فأقنعتنى هذه الحقائق بصحة ما سمعت . ولذا عزمت على تقصى أسبابها ، فجعلت أتساءل كيف حدث أن ازدادت قوة الدين الحقيقية ، على حين أخذت قوته الظاهرة فى النقصان ؟ فاستقر رأيى على أن معرفة السبب ليست من المستحيلات .

إن فترة الستين سنة القصيرة لايمكن أن ترضى خيال الإنسان ، كما أن ما فى هذه الدنيا من متع ناقصة لن يرضى قلبه . فالإنسان وحده ، دون سائر الحيوان ، هو الذى يظهر احتقاراً طبيعياً للحياة ، ومع ذلك تراه يرغب كل الرغبة فى أن يعيش ؛ فهو يحتقر الحياة ومع ذلك يخشى الموت والفناء . فهذه النزعات المختلفة تدفعه باستمرار إلى التأمل فى أمور الآخرة ، والدين نفسه يوجهه إلى ذلك .

فليس الدين إذن سوى شكل من أشكال الأمل الطبيعية التى تختلج فى صدور بنى الإنسان . فهم لا يتركون إيمانهم بالدين إلا إذا أصيبوا بلوثة عقلية ، أو تعرضت طبيعتهم الحقة إلى تشوه عنيف ، ولامناص لهم من الرجوع ثانية إلى مشاعر أكثر تقى وورعاً . فعدم الإيمان أمر عارض ، والإيمان وحده هو الحال الدائمة فى أحوال البشر . فإن نحن اعتبرنا المؤسسات الدينية من وجهة نظر إنسانية محضة ، قلنا إنها تستمد من الإنسان نفسه عنصراً من عناصر القوة لاينفد ، لأنه متصل بمبدأ من المبادىء المقومة للطبيعة البشرية .

ولا يفوتنى أن الدين قد يقوى فى أوقات معينة هذا النفوذ الصادر أصلاً من ذات نفسه ، وذلك بمعاونة ما للقوانين من قوة مصطنعة ، وبتأييد تلك المؤسسات الدنيوية التى توجه المجتمع . فلا يخفى أن من الأديان الوثيقة الصلة بالحكومة العلمانية ما يسيطر على نفوس الناس بالإرهاب ، كما يسيطر عليها بالإيمان ، ولكن إذا ما عقد دين محالفة من هذا القبيل لايسعنى إلا أن أؤكد أنه يقع فى الغلطة نفسها التى يقع فيها الرجل الذى يضحى بمستقبله فى سبيل سعادته الحاضرة . وإذا حصل الدين على سلطة لاحق له فيها يكون قد خاطر بسلطاته المشروعة . فكل دين يقيم سلطاته على رغبة الإنسان فى الخلود وحدها ، وهى رغبة تملأ قلب كل إنسان ، حق له أن يطمع فى أن يكون له سلطان عالمى . أما إذا ارتبط بحكومة ما ، فلم يسعه إلا أن يتبع قواعد لاتصدق إلا على بعض الأمم دون سائرها . وهكذا يكون الدين ، بارتباطه بقوة سياسية ، قد زاد فى سلطانه على بعض الناس[1] ، وفقد الأمل فى أن يسيطر على الناس أجمعين .

مادام الدين يقوم على دعائم من تلك العواطف التى تعد عزاء الإنسان فى كل شدة ، فإنه سيظل يجتذب محبة البشر جميعاً . أما إذا ما اتصل بما فى هذا العالم من شهوات مريرة ، فقد يضطر إلى الدفاع عن أحلاف له وأتباع انضموا إليه من أجل مصالحهم الخاصة ، لا عن محبة له ووفاء ، أو أنه قد يضطر إلى رفض رجال باعتبارهم خصوماً له ، وإن كانوا لا يزالون مستمسكين به مهما كانوا معارضين للقوى التى تحالف معها . فهل تستطيع الكنيسة مع هذا

---

(١) قد يكون فى ذهن المؤلف هنا ، موقف اليهود المعادين للنصارى فى بداية ظهور المسيحية .

أن تشترك مع سلطة الدولة العلمانية من غير أن تتحمل نصيبها من تلك الكراهية التى تولدها هذه السلطات فى نفوس الناس ؟

ليس للسلطات السياسية التى تبدو للناس أنها رسخت ، وتوطدت قواعدها ، ما يضمن بقاءها سوى آراء جيل واحد ، أو مصالح عصر واحد فحسب ، بل كثيراً ما لايكون لها سوى عمر شخص واحد ليس إلا . فقد يعدل القانون الأحوال الاجتماعية التى يظن الناس أنها استقرت وثبتت وصارت محددة تمام التحديد ، وبتعديل هذه الأحوال الاجتماعية لابد أن يتغير كل شيء . إن أكثر سلطات المجتمع مقضى عليها بالزوال ، شأنها فى ذلك شأن أعمارنا فى هذه الدنيا ، فهى تتوالى بسرعة توالى هموم الحياة ومتاعبها المختلفة . ولم يحدث بعد أن حكومة ما قامت على أساس نزعة ثابتة لاتتغير من نزعات القلب البشرى ، ولا على أساس مصلحة دائمة لاتزول .

فمادام الدين – أى دين – تسنده تلك العواطف والنزعات والوجدانات التى تتجلى دائماً فى أشكال معينة ثابتة ، فى كل عصر من عصور التاريخ ، فإنه يستطيع أن يتحدى صروف الزمن ، أو يستطيع ، على الأقل ، أن لايزول إلا على يد دين آخر ، أما إذا تعلق الدين بمصالح هذه الدنيا وتشبث بها ، فقد صار هشاً كل الهشاشة ، مثله فى ذلك مثل سلطانها . فالدين هو القوة الوحيدة التى تستطيع أن تأمل فى الخلود . أما إذا اتصل الدين بسلطات هذه الدنيا فلامندوحة له من أن يشاركها حظوظها ، وقد يسقط بسقوط شهواتها العابرة ، سنادها الوحيد . فأية محالفة يعقدها الدين مع القوى السياسية المختلفة ستكون لاشك مرهقة له ، فهو ليس بحاجة إلى معاونتها ليظل حياً ، على حين أنه إذا عاونها هو تعرض للزوال .

هذا الخطر الذى أشرت إليه تواً ، موجود دائماً ، وإن لم يكن جلياً دائماً فيدرك . فقد تبدو لنا الحكومات فى بعض العصور خالدة لاتفنى ، على حين يبدو المجتمع فى عصور أخرى معرضاً لسرعة الزوال أكثر من تعرض حياة الإنسان . هذا ، ومن الدساتير ما يورط المواطنين فى نوع من الخمول ، ومنها ما يوقظهم وينبههم حتى يكونوا فى تهيج الهموم . وعندما تبدو الحكومات قوية ، والقوانين ثابتة لاتتبدل ، لايدرك الناس ما يحدق بالدين من أخطار إذا ما اتحدت الكنيسة مع الدولة ، أما إن كانت الحكومات ضعافاً ، والقوانين فى تغير وتبدل ، تجلت الأخطار واضحة لكل ذى عينين ، إلا أن يكون تجنبها لم يعد ممكناً . فعلينا أن نتعلم إذن كيف ندركها وهى لاتزال بعيدة عنا .

وكلما اتخذت أمة حالة اجتماعية ديمقراطية ازداد الخطر عليها من جراء ربطها الدين بالمؤسسات السياسية . وما أسرع ما يجيء الوقت الذى تنتقل فيه السلطة من يد إلى يد ، وتتوالى النظريات السياسية الواحدة بعد أخرى ، ويختفى الناس ، وتزول القوانين والدساتير ، أو تظل تتعدل من يوم إلى يوم ، ولا يكون تعديلها هذا لموسم معين فحسب ،

بل باستمرار، فالاستثارة وعدم الاستقرار أمران ذاتيان فى طبيعة الجمهوريات الديمقراطية، كما أن الركود والخمول من قوانين الملكيات الاستبدادية المطلقة.

إن لم يكن الأمريكيون الذين يغيرون رئيس حكومتهم مرة كل أربع سنوات، وينتخبون مشترعين جدداً كل سنتين، ويبدلون مديرى الأقاليم كل اثنى عشر شهراً، والذين تركوا عالم السياسة لمحاولات المجددين - إن لم يكن هؤلاء الأمريكيون قد وضعوا الدين بمنأى من متناول أيديهم، فأنى يستطيع هذا الدين أن يثبت أمام مد الآراء البشرية وجزرها؟ أين يجد الاحترام الواجب له وسط اصطراع الطوائف والمذاهب؟ وما عسى أن يكون مصير خلوده وسط هذا التدهور العام؟ لقد كان رجال الدين فى أمريكا أول من أدرك هذه الحقيقة وعمل على أساسها. لقد أدركوا أنهم إن شاءوا السعى وراء السلطان السياسى، كان عليهم أن ينزلوا عن سلطاتهم الدينية. فلاغرو أن آثروا أن يرفضوا تأييد الدولة لهم، على أن يشاركوها فى تقلباتها وصروفها.

وقد يكون الدين فى أمريكا أقل قوة مما كان فى بعض الأمم، وفى بعض العصور، إلا أن نفوذه فى أمريكا أثبت وأدوم، فقد اقتصر على موارده الخاصة التى لا يستطيع شىء أن يحرمه إياها، وظل يعمل فى نطاق محدود لا يتعداه، فانتشر فى هذا النطاق وسيطر عليه سيطرة تامة لا ينازعه فيها أحد.

هذا، وإنا لنسمع فى كل رجًا من أرجاء أوربا أصواتاً تجأر بالشكوى من زوال الإيمان من قلوب الناس، وتدعو إلى البحث عن الوسائل التى يمكن أن تعيد إليه بقية ماكان له من سلطان سابق. وفى رأيى أنه يجب علينا أولاً أن ندرس بمزيد من العناية ما يجب أن يكون عليه حالة الناس الطبيعية من حيث الدين فى الوقت الحاضر. فإن عرفنا ما يجب أن نأمله، وما يجب أن نخشاه، استطعنا أن نعين الهدف الذى ينبغى لنا أن نوجه إليه كل جهودنا.

إن الانشقاق وقلة المبالاة خطران كبيران يهددان كيان الدين. فقد يترك الناس دينهم فى العُصُر التى تشتد فيها التقوى الدينية، ولكنهم لا يتركونه إلا ليتحولوا إلى دين آخر غيره، فإيمانهم قد يغير موضوعه، ولكنه لا يزول عنهم، وعندئذ يستثير الدين القديم كل فريق، إما إلى التحمس له والاستمساك به، وإما إلى معاداته عداء مريراً. ففريق يهجره مغضباً، وآخر يظل يعتصم به ويتحمس له تحمساً متزايداً. فمع أن المعتقدات قد تختلف، فالإلحاد يظل أمراً غير معروف بينهم. ومع ذلك فهذا لا يصدق إلا إذا قامت مبادىء مما يصح أن أسميها سلبية، تنخر أسس الدين خفية وسراً. فهى تنكر ديناً معيناً من غير أن تؤكد صدق آخر، وعندئذ تقوم ثورات جامحة فى نفوس البشر من غير ذلك التعاون الظاهر بين وجدانات الناس، بل ومن غير علم منهم تقريباً، فيفقدون الأشياء التى علقوا عليها أحب آمالهم، كأنهم قد أنسوها نسياناً تاماً، فيجرفهم تيار خفى لا تكون لديهم

الشجاعة على مواجهته ومقاومته ، بل هم يسايرونه آسفين ، لأنه يباعد بينهم وبين الدين الذى يحبونه ويجرفهم معه إلى تشكك يوردهم موارد اليأس .

ففى العصور التى يصدق عليها هذا القول نرى الناس يهجرون آراءهم الدينية عن فتور وقلة اكتراث ، لاعن كراهية لها ومقت . فهم لايرفضون هذه الآراء ، ولكنها هى التى تتضاءل وتزول . ولما كان غير المؤمن لايسلم بأن الدين حق ، فإنه يظل مع ذلك يراه مفيداً للناس ، وعندما ينظر إلى المؤسسات الدينية من وجهة نظر إنسانية ، يعترف بما لها من سلطان على الأخلاق ونفوذ على القوانين ، فإنه لايلبث أن يسلم بأنها قد تعاون على تمكين الناس من أن يعيشوا فى سلام ، وتعدهم فى رفق لاستقبال ساعة الموت . فهو يندم على الإيمان الذى أضاعه . وإذ قد حرم خيراً ثميناً يعرف قيمته ، صار يتحرج من أن ينتزع هو هذا الخير من الذين ظلوا ينعمون به .

ومن جهة أخرى ، فمن ظلوا مؤمنين ، لايهابون ، أن يعترفوا بإيمانهم فى صراحة ، وعلى مرأى من الناس ، وصاروا يعدون من لايشاركونهم فى آمالهم أولى بالشفقة والرثاء منهم بالخصومة والمقاومة ؛ وهم يعلمون أن الحصول على احترام غير المؤمنين لايتطلب منهم أن يحذوا حذوهم ، فهم لايعادون أى إنسان فى هذا العالم ، ولا هم يعتبرون المجتمع الذى يعيشون بين ظهرانيه ميدان صراع يضطر فيه الدين إلى مواجهة الآلاف من أعدائه الألداء . فهم يحبون معاصريهم ، وإن كانوا ينعون عليهم ضعفهم ، ويأسفون لما تورطوا فيه من أخطاء .

وإذ كان الذين لايؤمنون يخفون عدم إيمانهم هذا ويسرونه فى أنفسهم ، على حين يعلن المؤمنون إيمانهم صراحة ، فإن الرأى العام ينضم إلى صفوف الدين . فالناس يحبونه ويؤيدونه ويحترمونه . ولسنا نستطيع أن ندرك الجراح التى تصيب الروح الإنسانية ، إلا إذا تعمقنا دراسة هذه الروح . فجمهرة الناس الذين لايفارقهم أبداً هذا الشعور الدينى ، لايرون فى الإيمان القائم شيئا يبعدهم عن الدين . فرغبة الناس الفطرية فى الحياة بعد الموت تدفعهم ، فى غير مشقة ، إلى الذهاب إلى بيوت الله ، وتفتح قلوبهم لشئون الدين وما فيه من عزاء للإنسان .

ولكن هذه الصورة لاتصدق علينا . ففينا أناس لم يعودوا يؤمنون بالمسيحية من غير أن يختاروا لأنفسهم ديانة أخرى تحل محلها ؛ وارتطم آخرون فى حيرة الريبة والشكوك وجعلوا يتظاهرون بعدم الإيمان ؛ وثم غيرهم يخشون أن يعترفوا بالدين الذى مازالوا يؤمنون به فى سرهم .

فبين هؤلاء الأنصار الفاترى الإيمان ، وأولئك الخصوم المتحمسين ضده ، نجد عدداً صغيراً من المؤمنين المستعدين لمواجهة جميع العقبات ، وللاستهانة بكل خطر فى سبيل الدفاع

عما يؤمنون به . إنهم قد أساءوا إلى الضعف البشرى إساءة عنيفة كى يرتفعوا بأنفسهم على رأى الناس العام . وإذ قد تهيجوا من جراء ما بذلوه من جهود فى هذا السبيل ندر أن يعرفوا تماماً أين ينبغى لهم أن يقفوا . وإذ كانوا يعرفون أن أول ما استخدم فيه الفرنسيون استقلالهم كان فى مهاجمتهم الدين ، صاروا يخشون معاصريهم ويفزعون منهم ، وصاروا ينكصون خوفاً من الحرية التى يسعى المواطنون إخوانهم للحصول عليها . ولما كان الإلحاد فى نظرهم « مودة » جديدة ، صاروا ينظمون كل جديد يحدث فى سلك واحد من الكراهية بدون تمييز ، فهم فى حرب مع عصرهم ومع أوطانهم يعدون كل رأى يعرض ، عدوا سافراً من أعداء الدين .

ليست هذه بحالة الناس الطبيعية من حيث الدين فى الوقت الحاضر . فلابد أن ثمة سبباً عرضياً وخاصاً يعمل فى فرنسا على منع العقل البشرى من التمشى مع ميله الطبيعى ، ويدفعه إلى أن يتجاوز الحدود التى يجب أن يقف عندها ولا يتعداها ، بطبيعته .

أنا مقتنع كل الاقتناع بأن هذا السبب العرضى ، الخاص ، هو الاتصال الوثيق بين السياسة والدين . فالملحدون فى أوربا يطاردون المسيحيين بوصفهم خصومهم السياسيين ، لا بوصفهم خصومهم فى الدين . فهم يكرهون المسيحية بوصفها دين حزب معين أكثر مما يكرهونها من حيث هى إيمان خاطىء ، وهم لا يرفضون رجال الدين لأنهم يمثلون الإله على الأرض ، بل لأنهم يصادقون صاحب السلطان (الدنيوى) .

كانت المسيحية فى أوربا وثيقة الصلة بالسلطات الدنيوية ، وهى سلطات آخذة فى التدهور . وكأنى بها دفنت تحت أنقاضها ، وكأن الدين جسم حى ربط ربطاً وثيقاً برمة نظام عتيق ميت . فما علينا إلا أن نفصم الروابط التى تقيده بهذه الرمة من جديد . ولست أدرى أية قوة تستطيع إعادة الكنيسة المسيحية فى أوربا إلى ما كانت عليه من نشاط الشباب فى الأيام الخوالى . إن هذه القوة لفى يد الله وحده ، ولكن فى مقدور البشر أن يدعوا الدين يمارس على الأقل كل ما تبقى له من قوة .

عاونت عادات الأمريكيين وتعليمهم وخبرتهم العملية على إنجاح مؤسساتهم الديمقراطية

ما ينبغى أن يفهم من معنى تربية الشعب الأمريكى - تدريب العقل البشرى فى الولايات المتحدة أكثر سطحية منه فى أوربا - ولكن لا يوجد أحد جاهل كل الجهالة - سبب ذلك - السرعة التى تنتشر بها الأفكار فى الولايات الغربية نصف المتحضرة - كيف تخدم الخبرة العملية الأمريكيين أكثر مما يخدمهم العلم المستمد من الكتب .

سبق أن ذكرت الكثير بشأن تأثير تعليم الأمريكيين وعاداتهم التى يتبعونها فى صيانة مؤسساتهم الديمقراطية ، فلم يعد لدى إلا القليل من الجديد أضيفه إلى ما سبق .

لم يظهر فى أمريكا إلى الآن سوى عدد قليل كل القلة من الكتاب البارزين، فليس فيها مؤرخون يشار إليهم بالبنان، ولا نكاد نجد فيها حتى شاعراً واحداً. فسكان تلك البلاد ينظرون إلى الأدب الصحيح بشىء من الاستهجان. ففى أوربا مدن من الطبقة الثانية فى الأهمية تنشر كتباً فى الأدب فى العام الواحد، أكثر عدداً مما تنشره الأربعة والعشرون[1] ولاية التابعة للاتحاد مجتمعة. فعقل الأمريكيين ينفر من الآراء العامة، ولا يسعى وراء الاستكشافات النظرية. فلا السياسة ولا الصناعة توجههم نحو العناية بهذه التأملات وأمثالها. ومع أن قوانين جديدة تظل تصدر فى الولايات المتحدة باستمرار، فلم يظهر بعد كتّاب كبار يبحثون فى مبادى التشريع العامة. إن لدى الأمريكيين محامين وشراحاً للقوانين، ولكن ليس لديهم فقهاء فى القانون، وإنهم ليقدمون للعالم مثلا وسوابق لا دروساً. وتصدق هذه الملاحظة نفسها على الفنون الآلية. فأمريكا تقتبس المخترعات الأوربية اقتباساً وتعدلها بشكل يدل على فطنة وذكاء؛ فبعد أن يستكمل الأمريكيون ما عسى أن يكون فيها من نقص، يجعلونها ملائمة لحاجات بلادهم فى مهارة تستدعى الإعجاب. وفى أمريكا رجال صناعة، ولكنهم لا يعملون على موالاة العلوم الصناعية وتعهدها؛ وفى البلاد صناع مهرة ولكن ليس فيها غير عدد ضئيل من المخترعين. لقد ظل فلطن[2] (Fulton) مدة طويلة يقدم خدماته إلى الدولة الأجنبية قبل أن يتمكن من تكريس هذه الخدمات لبلاده نفسها.

فعلى من يريد أن يكون لنفسه رأياً عن أحوال التعليم بين الأمريكيين الإنجليز عليه أن يدرس الموضوع من وجهتى نظر مختلفتين. فإن هو وجه نظره إلى العلماء وحدهم دهش من قلة ما يصادفه منهم، أما إذا أدخل الجهلاء فى حسابه بدا له الشعب الأمريكى كله أكثر شعوب الأرض استنارة، على حين أن السكان فى جملتهم، كما أشرت فى موضوع آخر، وسط بين هذين الطرفين.

يتعلم كل مواطن فى « نيوإنجلند » مبادىء المعرفة الإنسانية، كما يتعلم زيادة على ذلك أصول دينه، والأدلة عليها، وتاريخ بلاده، ومعالم دستورها الرئيسية، ففى ولايتى كنيتيكت ومساتشوستس يندر كل الندرة أن تجد رجلاً لا يحسن معرفة هذه الأمور، فإن وجد من يجهلها جهلاً مطلقاً عد ظاهرة غريبة.

عندما أوازن بين جمهوريات اليونان والرومان، وبين هذه الولايات الأمريكية؛

---

(١) عددها الآن (١٩٩٠) خمسون ولاية.

(٢) روبرت فلطن (Robert Fulton) ١٧٦٥ - ١٨١٥، أمريكى من رواد المخترعين فى ميدان السفن البخارية، ولد فى ولاية بنسلفانيا. ورحل إلى إنجلترا سنة ١٧٨٧ حيث تفرغ لدراسة الهندسة، ثم إلى فرنسا سنة ١٧٩٤ حيث اخترع أول غواصة، وعاد إلى أمريكا ١٨٠٣ بعد غيبة ١٦ سنة، وأنشأ أول سفينة بخارية صالحة للعمل أنزلها فى نهر هدسن ١٨٠٦ فسارت ١٥٠ ميلا من نيويورك حتى البانى قطعتها فى ٣٢ ساعة، ثم أنشأ أول سفينة بخارية حربية سنة ١٨١٤ أسماها باسمه (فلطن).

وبين مكتبات المخطوطات التى فى الأولى ، وسكانها الجفاة ، وبين الصحف التى لاتحصى فى الولايات الأمريكية وشعب هذه الولايات المستنير ؛ وعندما أفكر فى تلك المحاولات التى لاتزال تعمل للحكم على الجمهوريات الحديثة بحسب معايير الجمهوريات القديمة - عندما أفعل ذلك وأستنبط ما عسى أن يحدث فى عصرنا الحاضر مما حدث من ألفين من الأعوام ، تحدثنى نفسى بأن أهم وأحرق جميع ما لدى من كتب ، حتى لاأطبق غير الآراء الجديدة على الأحوال الاجتماعية الجديدة كل الجدة .

ومع ذلك ، فيجب ألا يطبق ما ذكرته عن نيوإنجلند على الاتحاد بأسره دون تمييز ، فكلما تقدمنا نحو الغرب أو نحو الجنوب تناقص تعليم الشعب حتى إنا لانجد فى الولايات التى على شواطىء خليج المكسيك ، عدداً من الناس لم يحصلوا على مبادىء التعليم الأساسى ، كما نجد فى فرنسا . ولكن لايوجد فى الولايات المتحدة مركز واحد أهلوه جاهلون كل الجهل ، ويرجع ذلك إلى سبب بسيط . فقد نشأت أمم أخرى من ظلام البربرية تتقدم نحو نور الحضارة والعلم ، وكان تقدمها وئيداً وبخطى غير متساوية . فمنها من تقدم وتحسنت أحواله بسرعة ، على حين تباطأت أمم غيرها ، وتوقفت أخرى عن السير فلا تزال تغط فى نومها فى الطريق .

ولكن هذا لايصدق على الولايات المتحدة بحال من الأحوال . فقد سبق للأمريكيين أن تحضروا قبل أن يحلوا فى الأقاليم التى تشغلها ذراريهم الآن ؛ فلم يكن عليهم أن يبدأوا بأن يتعلموا ، بل كان حسبهم ألا ينسوا ما سبق أن تعلموه . وإنا لنرى الآن أبناء هؤلاء الأمريكيين ، وهم الأشخاص الذين ينقلون مساكنهم كل سنة إلى البرارى ، كما ينقلون إليها ما اكتسبوه من علم وحسن تقدير . لقد علمتهم التربية فائدة الثقافة ، ومكنت لهم أن يوصلوا آثارها إلى ذراريهم ، فلم يكن للمجتمع فى الولايات المتحدة ، طفولة ، فقد ولد فى حلبة نضج واكتمال .

لايستعمل الأمريكيون لفظة « فلاح » مطلقاً إذ لافكرة لديهم عن مدلولها . فالجهل بالعصور البعيدة السالفة ، وبساطة الحياة الريفية وجفوة القرويين - كلها أمور لاوجود لها عندهم . ولا لهم الفضائل والرذائل والعادات الجافية ، ولا تلك الساذجة التى تتجلى فى الأمم عند نشأة الحضارة فيها . ففى الأطراف النائية ، وعلى حدود المجتمع والبرارى والمجاهل ، يعيش سكان من المغامرين المعروفين بالإقدام والجرأة . فيخترقون مجاهل الغابات باحثين عن أراض جديدة يلجأون إليها هرباً من الفقر الذى كان يتربص بهم فى أوطانهم . فإذا ما وصل الرائد منهم إلى المكان الذى استقر رأيه على أن يتخذه موئلا له وسكناً ، سارع إلى قطع بضع شجرات وأنشأ له من كتلها كوخاً . وإنك لن تجد منظراً يبدو أتعس من مرأى أمثال هذه المساكن المنعزلة . فالسائح الذى يقترب منها عند الغروب يرى لهب

الموقد ظاهراً من خلال الشقوق التى فى الجدران . وفى الليل ، إن هبت الريح ، يسمع السقف المصنوع من الأغصان يهتز يميناً أو شمالاً وسط ما فى الغابة من أشجار باسقة . فمن ذا الذى لا يتصور أن هذا الكوخ التعس ملجأ للجهل وموئل للفظاظة والخشونة ؟ ومع ذلك فليس هناك أى شبه بين الرائد ، وبين مسكنه الذى يأويه . فكل شىء حوله بدائى وهمجى ، أما هو نفسه ، فثمرة ثمانية عشر قرناً وخبرتها . فتراه يرتدى ملابس المدن ويتحدث باللهجة التى يتحدث الناس بها عادة ، فهو ملم بأحوال الماضى ومتطلع إلى معرفة ما يأتى به المستقبل ، ومستعد للنقاش فيما يجرى فى الحاضر . إنه ، على الجملة ، إنسان واسع الثقافة ارتضى أن يعيش حيناً من الدهر وسط الغابات ، يتغلغل فى مجاهل الدنيا الجديدة ومعه الإنجيل والبلطة وبضع صحف . فمن العسير علينا أن نتصور تلك السرعة العظيمة التى يتداول بها الناس الأفكار وسط تلك المجاهل . ولست أظن أن نشاطاً عقلياً جمًّا مثل هذا النشاط يوجد فى أكثر أجزاء فرنسا استنارة وأكثرها ازدحاماً بالسكان .

ليس من شك فى أن تعليم الشعب فى الولايات المتحدة يعاون على مناصرة الجمهورية الديمقراطية ويساندها . وفى اعتقادى أن ذلك هو ما يجب أن يكون حيث لا ينفصل التعليم الذى ينير الأفهام عن التربية الأخلاقية التى تصلح القلوب . ولكن لا أميل إلى المبالغة فى هذه القيمة ، فما زلت بعيداً عن أن أظن ، ما ظنه كثيرون فى أوربا ، أن مجرد تعلم الناس القراءة والكتابة يجعل منهم مواطنين صالحين فى التو والساعة . إن المعلومات الحقة لا تستمد أساساً إلا من الخبرة . فإن لم يكن الأمريكيون قد اعتادوا شيئاً فشيئاً أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم ، لما أفادهم تعليمهم القائم على الكتب وحدها شيئاً يذكر فى الوقت الحاضر .

لقد عشت كثيراً بين ظهرانى الشعب فى الولايات المتحدة ، ولكنى لا أستطيع أن أعبر عن مدى إعجابى بخبرتهم وسلامة فطرتهم . ولكن يجب ألا تحمل الرجل الأمريكى على التحدث عن أوربا . فقد يبدى الكثير من الغرور والكبرياء الحمقاء ، ويفيض فى ذكر الآراء الفجة الغامضة التى تعاون الجهلاء كل العون فى كل قطر من الأقطار .. أما إن سألته عن بلاده هو ، فسرعان ما تنقشع السحب التى غشيت عقله ، وصارت لغته واضحة محددة ، وضوح تفكيره ودقته . وسيتحدث إليك عن حقوقه وعن الوسائل التى يصطنعها فى ممارسة تلك الحقوق ، ويبين لك العادات السائدة فى العالم السياسى ويشعرك أنه ملم بقواعد الإدارة ، وبأن إجراءات القوانين ليست بالغريبة عنه . فالمواطن فى الولايات المتحدة لا يستمد معلوماته العملية ، ولا آراءه الإيجابية من الكتب . إن التعليم قد يعده لتقبل هذه المعلومات ، ولكنه لا يزوده بها مباشرة ؛ فالأمريكى يتعلم قوانين بلاده من جزاء اشتراكه فى التشريع ، ويدرس أشكال الحكومات من اشتراكه فى الحكم عملياً ؛ فأعمال المجتمع العظمى تجرى على مرأى منه ، وإن شئت قلت إنها تجرى بين يديه .

تهدف التربية فى الولايات المتحدة إلى إعداد المواطنين للسياسة . أما فى أوربا فهى ترمى أساساً إلى إعداد الفرد للحياة الخاصة ، فتدخل المواطنين فى الشئون العامة أمر نادر كل الندرة فى أوربا ، فلا معنى من أن تعد له العدة من قبل - فحسبنا نظرة واحدة نلقيها على الناس المجتمعين فى كلّ من نِصْفَى الكرة توضح لنا هذه الفروق توضيحاً جلياً ، فتنبىء عنها حتى أشكالها الخارجية .

والناس فى أوربا كثيراً ما يدخلون عادات الحياة الخاصة وأفكارها فى الشئون العامة . وعندما ينتقل المرء منا فجأة من بيئة الأسرة إلى حكومة الدولة ، يغلب أن يشاهد مصالح المجتمع الكبرى بالشكل نفسه الذى نتحدث به إلى أصدقائنا . أما الأمريكيون فعلى العكس من ذلك ، فهم يدخلون كل يوم تقريباً عادات الحياة العامة فى حياتهم الخاصة . فترى فكرة المخلفين عندهم تتجلى حتى فيما يقوم به التلاميذ من ألعاب فى مدارسهم ، وكذلك تتجلى أساليبهم البرلمانية حتى فى نظام ولائمهم .

تعاون القوانين فى الولايات المتحدة على صيانة الديمقراطية والمحافظة عليها أكثر مما تعاون عليها ظروف البلاد الجغرافية ، وكذلك تعاون عليها العادات أكثر مما تعاون عليها القوانين

كل المجتمعات فى أمريكا ديمقراطية - ومع ذلك فالمؤسسات الديمقراطية لم يصنعها سوى الأمريكيين الإنجليز - فإسبانيو أمريكا الجنوبية ، قد عجزوا عن صيانة جمهورية ديمقراطية بين ظهرانيهم مع أن أحوالهم الجغرافية مواتية لهم مواتاة أحوال الأمريكيين الإنجليز الجغرافية - والمكسيك ، وقد أخذت دستورها عن دستور الولايات المتحدة ، عجزت هى الأخرى - الأمريكيون الإنجليز الذين فى الغرب أقل قدرة على المحافظة على الجمهورية الديمقراطية ممن فى الشرق - أسباب هذه الفروق .

أشرت من قبل إلى أن صيانة المؤسسات الديمقراطية فى الولايات المتحدة ينبغى أن تعزى إلى ظروفها ، وإلى قوانينها ، وعاداتها . وليس يعرف معظم الأوربيين سوى السبب الأول من هذه الأسباب الثلاثة وقد يجعلون له شأناً أعظم مما له فى الواقع .

حقاً إن الأمريكيين الإنجليز قد وفدوا على أمريكا واستوطنوها وهم متساوون من حيث الناحية الاجتماعية ، فلم يكن بينهم شريف نبيل ، ولا سوقة ولا وضيع ، وكانوا يجهلون ضروب التعصب للمهنة ، جهلهم بالتعصب للنسب والأصل . ولما كانت أحوالهم ديمقراطية ، فقد نشأ بينهم الحكم الديمقراطى فى يسر ، وبغير أية مشقة . وهذه خاصية ليست مقصورة على الولايات المتحدة وحدها ، فغالبية المستعمرات الأمريكية قد أنشأها رجال متساوون فيما بينهم ، أو هم ، أصبحوا كذلك من جراء مقامهم فيها . ولم يستطع

الأوربيون فى الدنيا الجديدة أن ينشئوا نظاماً أرستقراطياً واحداً فى أى جزء من أجزائها ، ومع ذلك لم ينجح النظام الديمقراطى فى أى مكان فيها مثل نجاحه فى الولايات المتحدة .

فليس أمام الاتحاد الأمريكى أعداء يناضل ضدهم ، فهو يقوم وحده وسط مجاهل أشبه شىء بجزيرة وسط المحيط . هذا ، ولم يكن إسبانيو أمريكا الجنوبية أقل منهم انعزالا بالطبيعة ، ومع ذلك فلم يعقهم موقعهم من تكوين الجيوش القائمة ، وشن الحروب بعضهم على بعض ، عندما لم يجدوا أمامهم عدوا أجنبياً يحاربونه ، فالديمقراطية الأمريكية الإنجليزية وحدها هى التى استطاعت أن تحتفظ بالسلام قائماً حتى اليوم .

ففى إقليم الولايات المتحدة مجال واسع للنشاط الإنسانى لا حد له ، وبه موارد للعمل والصناعة لا تنفد . فلا غرو أن حل التحمس لجمع الثروات محل الطموح ، ولا غرو كذلك أن قلل الشعور بالرخاء والازدهار ، من حدة الطائفية فى هذا الإقليم . ففى أى جزء من العالم نستطيع أن نجد سهولاً أخصب وأنهاراً أعظم ، ومصادر للثروة لا تنفد ، ولم يبحث عنها بعد ، مثل ما نجده فى أمريكا الجنوبية ؟ ومع ذلك فأمريكا الجنوبية هذه لم تستطع أن تصون المؤسسات الديمقراطية وتحافظ عليها . فإن كانت سعادة الأمم تتوقف على وجودها فى موضع قصى ناء فيه أراض مترامية الأطراف صالحة للسكنى . فإن إسبانيى أمريكا الجنوبية لا يجدون أى سبب يدعوهم للشكوى من حظهم . ومع أنهم قد يستمتعون برخاء أقل مما يستمتع به أهالى الولايات المتحدة فإن حظهم مع ذلك ليستثير الحسد فى بعض الأمم الأوربية على الأقل . ومع ذلك كله فليس على ظهر هذه البسيطة أتعس من أمم أمريكا الجنوبية .

فالأسباب الجغرافية وحدها لا تكفى لإحداث نتائج شبيهة بما فى أمريكا الشمالية فحسب ، فهى لم تستطع أن ترفع سكان أمريكا الجنوبية فوق مستوى الدول الأوربية ، حيث تعمل هذه الأسباب ذاتها فى اتجاه مضاد . وعلى هذا كانت الأسباب الجغرافية لا تؤثر فى مصائر الأمم بقدر ما كان الناس يظنون من قبل .

صادفت فى نيوإنجلند رجالاً كانوا على وشك مغادرة البلاد التى كان يتسنى لهم أن يعيشوا فيها فى رخاء ، ليسعوا وراء جمع المال وسط المجاهل والبرارى . وغير بعيد عن هذا الإقليم قابلت الجالية الفرنسية فى كندا محتشدة فى جزء ضيق من الأرض ، على حين كانت أمثال تلك المجاهل قريبة منهم . وبينما كان المهاجر من الولايات المتحدة يشترى ضيعة واسعة مترامية الأطراف بما كسبه من مال فى زمن قصير قضاه فى العمل والكدح ، كان الكندى يدفع ما لا يقل عن هذا القدر من المال ، كما لو كان فى فرنسا . وهكذا تقدم الطبيعة مجاهل الدنيا الجديدة للأوربيين أيضاً ، ولكنهم لا يعرفون دائماً كيف يستغلون ما فيها من نعم ومن خيرات . وثم شعوب أخرى من سكان أمريكا لهم نفس الظروف الجغرافية التى تؤدى إلى رخاء مثل ما للأمريكيين ، ولكن من غير أن يكون لهم مثل عاداتهم ومثل

قوانينهم ؛ وهؤلاء الآخرون يعيشون فى بؤس ومن ثم حق لنا أن نقول إذن إن قوانين الإنجليز الأمريكيين وعاداتهم الأخلاقية هى السبب الأساسى الخاص فى عظمتهم ، هذا هو الغرض من بحثى هذا .

إنّا أبعد الناس عن القول بأن القوانين الأمريكية صالحة كل الصلاح فى ذاتها ، ولست أعتقد أنها تصلح لجميع الأمم الديمقراطية ، وإن الكثير من تلك القوانين ليبدو لى خطراً حتى على الولايات المتحدة ذاتها . ولكن لا مجال لنكران أن التشريع الأمريكى فى جملته ملائم كل الملاءمة لعبقرية الشعب ولطبيعة البلاد التى وضع لحكمها . فالقوانين الأمريكية صالحة إذن – ويجب أن نعزو إليها قسطاً كبيراً من ذلك النجاح الذى لقيه الحكم الديمقراطى فى أمريكا ، ولكنى لا أرى أن هذه القوانين هى السبب الرئيسى فى ذلك النجاح ، وإن ظهر لى أن لها تأثيراً على سعادة الأمريكيين الاجتماعية أكثر مما لطبيعة البلاد ، فلا يزال ثَمَّ سبب للاعتقاد بأن تأثيرها دون ما لعادات الشعب الأخلاقية من تأثير .

لا شك فى أن القوانين الفدرالية تعد أهم جزء فى تشريعات الولايات المتحدة ، فالمكسيك التى لا يقل موقعها الجغرافى حظاً عن موقع الأمريكيين الإنجليز فى الولايات المتحدة ، قد أخذت بهذه القوانين نفسها إلا أنها أخفقت فى أن تعود نفسها على الحكم الديمقراطى ، فلابد إذن من أن يكون ثَم سبب آخر يعمل مستقلاً عن الأحوال الجغرافية وعن القوانين هو الذى مكن للديمقراطية من أن تحكم فى الولايات المتحدة وتسودها كلها .

وثم دليل آخر على ذلك أقوى من الأول وأوجه منه ، ولا ضير من ذكره . فالسكان الذين يقطنون أقاليم الولايات المتحدة كلهم أو جلهم من دم واحد ، ويتكلمون لغة واحدة ، ويعبدون الله على صورة واحدة . ذلك إلى أنهم يتأثرون بعوامل جغرافية واحدة ، ويعيشون فى ظل قوانين واحدة . فمن أين نشأت بينهم تلك الفروق التى ميزت بعضهم على بعض يا ترى ؟ ولم كانت حكومة الجمهورية تظهر قوة وانتظاماً فى ولايات الاتحاد الشرقية ولا تخطو خطوة واحدة إلا بعد تؤدة وروية ؟ أنى لها تلك الحكمة وذلك الاستقرار اللذان تتكلم بهما جميع قراراتها ؟ على حين تبدو الولايات الغربية على العكس من ذلك أسيرة المصادفات ، ورهن الأهواء . وهناك تدار الشئون العامة بشىء من عدم الانتظام ، وفى اندفاع وتهيج أشبه بتهيج المحموم مما لا يبشر بمستقبل طويل .

لست الآن بصدد الموازنة بين الأمريكيين الإنجليز وبين أمم أجنبية ولكنى أقابل بين بعضها وبعض محاولاً أن أتوصل إلى السبب الذى جعلها مختلفة هذا الاختلاف . فالحجج المستمدة من طبيعة البلاد ، واختلاف التشريعات ، قد استبعدت كلها ، فلا مناص من أن تلجأ هنا إلى سبب آخر ؛ وأى سبب يمكن أن يكون ذلك غير عادات الشعب وعرفه ؟ .

لقد ظل الأمريكيون الإنجليز القاطنون فى الولايات الشرقية (من الاتحاد) يألفون الحكم الديمقراطى زمناً طويلاً ، وقد اختاروا أصلح العادات ، وأنسب الأفكار للمحافظة

على مثل هذا الحكم ، وبذلك تغلغلت الديمقراطية شيئاً فشيئاً فى عاداتهم وآرائهم وأشكال علاقاتهم الاجتماعية ، حتى صارت تتجلى فى جزئيات حياتهم اليومية ، كما تتجلى فى قوانينهم . ففى الولايات الشرقية بلغ تعليم الشعب القائم على الكتب ، وبلغت تربيتهم العملية حد الكمال ، واندمجت الديانة عندهم فى الحرية أتم اندماج ، فما عسى أن تكون هذه العادات والآراء والمعتقدات سوى ما أسميته بالعرف ؟

أما الولايات الغربية ، فعلى النقيض من ذلك ، مازال ينقصها جزء من هذه المزايا نفسها . كثيرون من أمريكيى الغرب قد ولدوا فى الغابات ، فلا غرو أن صاروا يخلطون الآراء والعادات الشائعة فى الحياة الهمجية ، بحضارة آبائهم . ومن ثم كانت أهواؤهم أعنف وأشد ، وأخلاقهم الدينية أقل سيطرة عليهم ، وكذلك معتقداتهم ، فهى أقل ثباتاً . فليس للسكان أى نوع من الرقابة على زملائهم ، ولا يكاد الواحد منهم يعرف الآخر . أما أمم الغرب فتتجلى فيهم ، إلى حد ما قلة الخبرة ، وجفوة العادات ، الأمران اللذان يمتاز بهما كل شعب مازال فى طفولته . فمع أنهم يتكونون من عناصر قديمة ، فإن مجتمعهم لم ينشأ إلا منذ عهد قريب .

فعادات الأمريكيين الأخلاقية فى الولايات المتحدة هى إذن السبب الخاص الذى جعل الشعب من بين سائر الشعوب الأمريكية - الوحيد - الذى يستطيع أن يتحمل حكومة ديمقراطية ؛ وتأثير العادات هذا هو الذى أدى إلى قيام مختلف درجات النظام والرخاء التى نجدها فى مختلف الديمقراطيات الأمريكية الإنجليزية . فتأثير مركز الأمة الجغرافى فى بقاء المؤسسات الديمقراطية مزية بالغ فيها الأوربيون كل المبالغة . فقد أسرفوا فى الإشادة بأهمية التشريع وقللوا من شأن العادات . فهذه الأسباب الثلاثة الكبرى تعاون ، من غير شك على تنظيم الديمقراطية الأمريكية ، وعلى توجيهها ، ولكن إن شئنا أن نضعها فى موضعها الواجب لها ، لقلت إن الظروف الجغرافية أقل تأثيراً من القوانين ، وتأثير القوانين أقل إلى حد كبير من تأثير عادات الشعب وعرفه . وإننى لمقتنع كل الاقتناع بأن خير موقع جغرافى ، وخير القوانين لا يستطيعان أن يصونا دستوراً ما ، على الرغم من عادات البلاد ، على حين تستطيع هذه العادات أن تستفيد ، إلى حد ما ، من أسوأ موقع جغرافى ، ومن أسوأ القوانين . إن أهمية العادات والعرف ، حقيقة معروفة شائعة توجهنا إليها البحوث والدراسات ، وتوجهنا إليها الخبرة كذلك ، ويصح اعتبارها النقطة المركزية فى كل ملاحظاتى ، وختام كل بحوثى . وإنى لأؤكد أهمية هذه النقطة كل التأكيد . فإن كنت فشلت إلى الآن فى إشعار القارىء بما للخبرة العملية والعادات والآراء ، وفى الجملة ، بما للعرف السائد بين الأمريكيين من تأثير بالغ على صيانة مؤسساتهم والمحافظة عليها - فقد فشلت فى تحقيق غرضى الرئيسى من وضع هذا الكتاب .

هل تكفى القوانين والعادات لصيانة الديمقراطية فى البلاد الأخرى فضلاً عن صيانتها فى أمريكا

لو حدث أن انتقل الأمريكيون الإنجليز إلى أوربا لاضطروا إلى تعديل قوانينهم - ضرورة التمييز بين المؤسسات الديمقراطية والمؤسسات الأمريكية - قد نتصور قوانين ديمقراطية أفضل مما تسير عليها الديمقراطية الأمريكية أو على الأقل مختلفة عنها - لاتدل أحوال أمريكا على شيء أكثر من إمكان تنظيم الديمقراطية بمعاونة العادات الأخلاقية والقوانين .

سبق أن أكدت أن نجاح المؤسسات الديمقراطية فى الولايات المتحدة يرجع إلى القوانين نفسها ، وإلى ما لدى الشعب من عادات أخلاقية أكثر مما يرجع إلى طبيعة البلاد الجغرافية .

ولكن هل يستتبع ذلك أن هذه الأسباب نفسها إذا ما انتقلت إلى بلاد أخرى تنتج النتائج نفسها من تلقاء نفسها ؟ وإن كان تأثير الموقع الجغرافى لايستطيع أن يكون بديلاً كافياً من تأثير القوانين والعادات ، فهل تستطيع هذه القوانين وتلك العادات وحدها أن تحل بدورها محل الموقع الجغرافى ؟ إن عناصر الإجابة اللازمة للإجابة عن هذا السؤال تعوزنا هنا . فثم أمم وشعوب فى الدنيا الجديدة غير الأمريكيين الإنجليز . فإذا كانوا يتأثرون بنفس الأحوال الجغرافية التى يتأثر بها هؤلاء استطعنا أن نقارنهم بهم ، أما خارج أمريكا فلا توجد أمم اختارت نفس القوانين ونفس العادات الأخلاقية ، وإن كان يعوزها التمتع بنفس الميزات الجغرافية التى يستمتع بها الأمريكيون الإنجليز ، وهنا لايتوافر أى معيار للموازنة فلا يسعنا إلا المخاطرة بإبداء الرأى .

يبدو لى أولا ، أننا يجب أن نميز بكل دقة بين مؤسسات الولايات المتحدة والمؤسسات الديمقراطية فى جملتها بشكل عام . فكلما فكرت فى أحوال أوربا ، وما فيها من شعوب عظيمة ، ومدائن حافلة بالسكان ، وجيوش جرارة ، وسياسات متعددة لايسعنى إلا أن أعتقد أن الأمريكيين الإنجليز أنفسهم إن انتقلوا إلى أوربا ، بما لهم من آراء ودين وعادات ، لايستطيعون أن يعيشوا من غير أن يعدلوا قوانينهم تعديلاً كبيراً . ولكنا نستطيع أن نتصور أمة ديمقراطية منظمة تنظيماً يخالف تنظيم الأمة الأمريكية . فهل من المستحيل علينا إذن أن نتصور حكومة تقوم فعلاً على أساس من إرادة الأغلبية ؟ ولكن الأغلبية هذه التى تكبح ما بها من نزعات فطرية تدفعها إلى المساواة ، وترضى ، حباً فى مصلحة نظام الدولة واستقرارها ، أن تعهد إلى أسرة أو إلى فرد بكل الوسائل التى تسوغ له ممارسة القوة التنفيذية ؟ ألا نستطيع تصور جماعة ديمقراطية تكون فيها سلطات الأمة مركزية على نحو أشد مما هو فى الولايات المتحدة ، حيث يستطيع فيها الشعب أن يمارس نفوذاً على الشئون العامة غير مباشر ، وغير جارف طاغ ، ومع ذلك يكون فى استطاعة كل

مواطن له حقوق معينة ، أن يشترك فى إدارة الحكم فى دائرته هو الخاصة ؟ إن ما شاهدته عند الأمريكيين الإنجليز ليحملنى على الاعتقاد بأن المؤسسات الاجتماعية التى من هذا القبيل ، إذا ما أدخلت بحزم وتعقل فى المجتمع بشكل يجعلها تندمج تدريجياً فى عادات الشعب وتتغلغل فى آرائه – يمكن أن تعيش فى بلاد أخرى غير أمريكا . إن كانت قوانين الولايات المتحدة هى القوانين الديمقراطية الوحيدة التى تستطيع أن تتصورها ، أو القوانين الكاملة الوحيدة التى يمكن أن تخطر بالفكرة – لسلمت بأن نجاحها فى أمريكا لاينهض دليلاً على نجاح القوانين الديمقراطية فى بلاد حظها من مواتاة الطبيعة أقل من حظ الولايات المتحدة . ولكن لما كانت قوانين الولايات المتحدة فى نظرى ناقصة ومعيبة من نواح عدة ، وأستطيع فى يسر أن أتصور قوانين أخرى غيرها ، فإن طبيعة تلك الدولة الخاصة بها لاتدل على أن الديمقراطية لايمكن أن تنجح فى أمة أقل حظاً من مواتاة الأحوال الجغرافية لها ، لو أنها حكمت بقوانين أفضل .

لو أن الطبيعة البشرية كانت مختلفة فى أمريكا عما هى فى أى مكان آخر ، ولو كانت الأحوال الاجتماعية قد خلقت فى أهليها عادات وآراء تختلف عما ينشأ فى نفس الأحوال الاجتماعية فى الدنيا القديمة ، لما قدمت لنا الديمقراطيات الأمريكية أى وسائل تعاوننا على التنبؤ بما يمكن أن يحدث فى الديمقراطيات الأخرى . فلو أن الأمريكيين أظهروا الميول عينها ، التى تبديها جميع الأمم الديمقراطية ، ولو أن مشترعيهم اعتمدوا على طبيعة البلاد وعلى مواتاة الظروف لهم ، فى كبح هذه النزعات وحصرها فى نطاق الحدود الواجبة لها ، لما كان فى ازدهار الولايات المتحدة الذى يعتمد على الأسباب الفيزيقية وحدها أى تشجيع لأى شعب يميل إلى محاكاتهم ، من غير أن يكون له شىء من الميزات التى يستمتعون بها . ولكن حقائق الواقع لاتؤيد أى فرض من هذه الفروض .

إنا لنجد فى أمريكا نفسها الشهوات التى نجدها فى أوربا ، فقد نشأ بعضها أصلاً فى الطبيعة البشرية ونشأ البعض الآخر فى أحوال المجتمع الديمقراطية . فلا غرو إن وجدنا فى الولايات المتحدة ذلك القلق النفسى الطبيعى فى الإنسان ، عندما تتساوى كل مراتب الناس تقريباً ، وتتساوى فرص الترقى أمام جميع المواطنين . لقد وجدت فى أمريكا الشعور الديمقراطى بالحسد ، يتجلى فى صور شتى لاحصر لها . كما لاحظت أن الناس فيها كثيراً ما يبدون فى إدارتهم للأعمال خليطاً كبيراً من الجهل والغرور ، واستنتجت من ذلك أن الأمريكيين معرضون لنفس النقائص ولنفس الشرور التى يتعرض لها الناس فى أوربا . ولكن عندما فحصت عن حالة المجتمع بمزيد من العناية لم ألبث أن وجدت بسهولة أن الأمريكيين قد بذلوا جهوداً جبارة ناجحة ليوازنوا ما فى الطبيعة البشرية من نقائص ، وليصلحوا ما فى الديمقراطية من عيوب طبيعية . وفى اعتقادى أن قوانين بلدياتهم المختلفة حواجز كثيرة تكبح المطامع القلقة التى تختلج فى نفوس المواطنين وتحصرها فى نطاق ضيق ، وتوجه هذه المطامع الديمقراطية نفسها التى كان يمكن أن تلحق بالدولة أضراراً جساماً

- إلى مصلحة القرية أو الأبرشية . ويبدو لى أن المشترعين الأمريكيين قد وفقوا بعض التوفيق فى مقاومتهم الشعور بالحسد ، بفكرة الحق ، كما وفقوا فى مقاومة التغيير السياسى المستمر بالحث على الأخذ بالأخلاق الدينية الثابتة ، وإلى مقاومة جهل الشعب بالأمور النظرية بخبرته العملية ومقاومة قلق رغباته ، بعاداتهم فى إدارة شئون الأعمال .

لم يعتمد الأمريكيون إذن على طبيعة بلادهم الجغرافية وحدها فى مقاومة الأخطار التى نشأت فى دستور بلادهم ، وفى قوانينهم السياسية . فقد عالجوا تلك المساوىء العامة فى كل الأمم الديمقراطية بوسائل لم يسبق أن فكر فيها أحد سواهم من قبل . ومع أنهم كانوا أول من أجرى هذه التجربة ، فقد وفقوا فيها وحالفهم النجاح . فليست عادات الأمريكيين وقوانينهم ، هى وحدها التى تلائم الشعوب الديمقراطية ، ولكن الأمريكيين بينوا لنا أنه من الخطأ أن نيأس من تنظيم الديمقراطية بمعاونة القوانين والعادات الأخلاقية . فإن استعارت أمم أخرى من الأمريكيين ، هذه الفكرة العامة الحافلة من غير أن تقصد مع ذلك إلى مجرد محاكاتهم فى تطبيقهم لها التطبيق الخاص بهم ، فإن حاولت هذه الأمم أن تهيىء نفسها لتلك الأحوال الاجتماعية التى شاءت العناية أن تفرضها على أجيال هذا العصر ، وبذلك تتفادى الاستبداد أو الفوضى التى تهددهم ، فما عسى أن يكون لدينا من الأسباب التى تدعونا إلى الظن بأن جهودهم ستذهب عبثاً أو لن تكلل بالنجاح ؟ إن تنظيم الديمقراطية وإرساء قواعدها فى البلاد الأوربية مشكلة عصرنا السياسية الكبرى فى الوقت الحاضر ، وليس من شك فى أن الأمريكيين لم يحلوا هذه المشكلة فعلاً ولكنهم قدموا لنا بيانات تفيد كل من يتصدى لحلها .

أهميـــة ما تقـــدَّم لأحـــوال أوربـا

لا يشق على القارىء أن يدرك السبب الذى دعانى إلى القيام بما قمت به من البحوث السابقة . فليست المشكلة التى أثرتها مما يهم الولايات المتحدة وحدها بل تهم العالم بأسره ، فهى لا تخص شعباً واحداً بل تخص الناس أجمعين . فإن كانت الأمم التى حالتها الاجتماعية ديمقراطية لا تستطيع أن تظل حرة إلا إذا كانت تسكن البرارى والمجاهل لوجب علينا أن نيأس من مصائر الجنس البشرى كله . فالناس جميعاً يسيرون حثيثاً نحو الديمقراطية ، والمجاهل آخذة فى الازدحام بالسكان ، فإن صدق القول بأن القوانين والعادات الأخلاقية لا تكفى وحدها لصيانة المؤسسات الديمقراطية ، فأى ملجأ بقى إذن للشعوب تلوذ به غير الخضوع لحاكم فرد يستبد بها ؟ لا يغيب عنى أن ثمة أشخاصاً فضلاء فى الوقت الحاضر لا يرهبون هذا المصير ، فقد ملوا الحرية وبرموا بها حتى ليسرهم أن يستريحوا بمنأى عن عواصفها . ولكن هؤلاء الأشخاص الفضلاء لا يعرفون حق المعرفة المرفأ الذى يتجهون إليه . فإن كانت ذكرياتهم تشغل بالهم فقد صاروا يحكمون على السلطة المطلقة بحسب ما كانت عليه من قبل ، لا بحسب ما يمكن أن تصير إليه فى عصرنا الحاضر .

فلو أن السلطة المطلقة عادت إلى الأمم الديمقراطية فى أوربا لما ساورنى أى شك فى أنها ستتخذ لها شكلاً جميلاً ، وأنها ستبدو فى ملامح جديدة ، لا عهد بها لآبائنا . فقد أتى على أوربا حين من الدهر خولت فيه القوانين ، وموافقة الشعب عليها - للأمراء الحاكمين ، سلطة تكاد لاتحد ولكن قلما استخدمها واحد منهم . لست بصدد الكلام على ميزات النبلاء ، ولا على سلطة المحاكم العليا ولا أنا بصدد الكلام عن الشركات وحقوقها الممنوحة لها قانوناً ، ولا عن الميزات الإقليمية التى صمدت لضربات السلطة الحاكمة واستبقت روح المقاومة قائمة فى الأمة . فضلاً عن هذه المؤسسات السياسية ، التى مهما كانت مضادة للحريات الفردية قد أفادت فى استبقاء محبة الحرية قائمة فى قلوب الناس ، والتى يصح لنا أن نعتبرها نافعة من هذه الوجهة ، فإن آراء الأمة وآدابها الأخلاقية قد أحاطت السلطة الملكية بحواجز لم تك أقل قوة لأنها غير مرئية . إن الدين ومحبة الشعب ، وميول الأمير الخيرية ، وحاسة الشرف ، وكبرياء الأصل والنسب ، والتحزبات الإقليمية ، والعادات والرأى العام ، هذه حدت كلها من قوة الملوك ، وحصرت سلطتهم فى دائرة غير مرئية . لقد كان دستور الأمم دستوراً استبدادياً فى ذلك الوقت ، ولكن آدابهم وسلوكهم كانت حرة ، وكان للأمراء الحق فى أن يفعلوا ما يشاءون ، ولكن لم يكن لديهم الوسائل ولا الرغبة فى ذلك .

فماذا تبقى الآن من هذه الحواجز التى أوقفت الاستبداد فى الأزمنة القديمة ؟ إذا فقد الدين ما له من سلطان على نفوس الناس انهارت أبرز الحدود التى فصلت الخير عن الشر ، وبدا كل شىء فى العالم الأخلاق غير متعين ، ومشكوكاً فيه ، ولم تعد الملوك ولا الأمم تسترشد إلا بالمصادفات - ولم يعد أحد يستطيع أن يقول أين حدود الاستبداد الطبيعية ، ولا أين حدود الترخيص . لقد قضت الثورات منذ أمد بعيد على الاحترام الذى كان يحيط بحكام الدول ، وإذ قد أعفى هؤلاء من عبء تقدير الشعب لهم ، فقد صار للأمراء أن يستسلموا إذن ، فى غير خوف ، إلى نشوة السلطة التحكمية الغشوم ويثملوا بها .

فعندما يجد الملوك أن قلوب رعاياهم تتجه إليهم صاروا رفقاء رحيمين بهم ، لأنهم يشعرون بقوتهم ، ويحرصون على محبة شعوبهم ، ولا يفرطون فيها بحال ، لأنها دعامة عروشهم . وعندئذ يقوم حسن النية ، وجميل العواطف بين الأمير وشعبه ، مما يشبه قيام العواطف العائلية فى المجتمع كله . فقد يحدث أن تتذمر الرعايا من بعض قرارات الملك ، ولكنهم مع ذلك يأسفون إن هم أغضبوه ؛ وقد يعاقب الملك رعاياه ، ولكنه عقاب بيد الوالد الرفيق .

ولكن إذا ما حدث وزال نفوذ الملكية فى أثناء جلبة الثورة ، وعندما يتوالى على العرش ملوك عدة ، كل منهم يبدى بدوره للشعب ضعف ما له من حق ، وقسوة ما له من سلطان ، لم يعد أحد يعتبر الملك أباً للشعب ، وصار الجميع يخشونه كما يخشون سيداً عليهم .

فإن كان هذا السيد ضعيفاً ازدروه ، وإن كان قوياً كرهوه ، وأصبح هو يناصبهم العداء ، ويحذَرهم كل الحذر . إنه ليجد نفسه غريباً فى بلاده ، يعامل رعاياه كما لو كانوا أعداءه المقهورين .

وعندما كوّنت المدن والمقاطعات عدداً كبيراً من الشعوب المختلفة فى وسط بلدها المشترك ، كان لكل منها إرادتها الخاصة ، التى كانت متعارضة مع الروح العامة للخضوع . ولكن لما كانت الأنحاء المختلفة من الامبراطورية نفسها قد اعتادت احترام القوانين بعد أن فقدت ما كانت تتمتع به من حصانات وما استقر فيها من أعراف وضروب تعصبها وتقاليدها - لم يعد البطش بها جميعاً وجملة أصعب من البطش بها فرادى الواحدة بعد الأخرى كما كانت الحال من قبل .

بينما كان النبلاء يستمتعون بسلطتهم ، بل وبعد أن فقدوا هذه السلطة بزمن طويل ، كان شرف الأرستقراطية قد أضفى درجة غير عادية من القوة على معارضتهم الشخصية ، وعندئذ يقوم أناس ممن لا يزالون يرون فى أنفسهم رأياً كبيرا ، على الرغم من ضعفهم ، ويتجاسرون أن يقفوا فرادى وحدهم فى وجه السلطات يناضلون ضدها . ولكنا فى الوقت الحاضر ، وقد قلّت الفروق التى بين مختلف درجات الناس ورتبهم ، قلة كبيرة ، عندما يختفى الفرد فى الجماعة ويفنى وسط ما فيها من خمول عام ، وعندما يفقد شرف الملكية كل سلطته من غير أن يستعيض عنه بقوة الفضيلة ، وعندما لا يكون ثم شىء يمكن الإنسان من أن يرتفع عن ذات نفسه - عند ذلك كله ، من ذا الذى يستطيع أن يحدد نقطة يمكن أن تقف عندها مقتضيات القوة ، وذلة الضعف يا ترى ؟

فمادام الشعور نحو الأسرة حياً ، فلن يكون عدو الظلم وحده أبداً . فما عليه إلا أن ينظر حوله حتى يجد له أنصاراً من أتباعه ومن أصدقائه الوراثيين ، ومن ذوى قرابته . فإن أعوزه تأييد هؤلاء الأنصار أحس كأن أجداده يسندونه ، وأن ذريته لتبعث فيه النشاط والحياة . ولكن إذا ما قسمت ضياع الأسرة ، وأملاكها ، وكانت بضع سنين كافية لإزالة الفروق التى بين أصول الناس ، فأين يكون الشعور بأواصر الأسرة إذن ؟ وأية قوة يمكن أن تكون للعرف فى بلاد تغيرت كل ملامحها الظاهرة ، ولا تزال تتغير باستمرار ، وحيث توجد سابقة لكل عمل يأتيه الظلم ، ومثال سابق لكل جريمة ترتكب ، وحيث لا يستطيع المرء أن يجد شيئاً قديماً - مغرقاً فى القدم - يمكن أن يقيه قدمه هذا من الهدم ، ولا شىء جديداً بدعا غير مسبوق ، تمنعه جدته هذه من أن يعمل ؟ وأية مقاومة يمكن أن تقدمها عادات مرنة كل هذه المرونة حتى سبق لها أن استسلمت وخضعت ؟ وأية قوة يمكن أن تبقى حتى للرأى العام نفسه عندما لا يوجد عشرون شخصاً تربطهم رابطة مشتركة ، وحيث لا رجل ولا أسرة ، ولا شركة رسمية ، ولا طبقة من الطبقات ، ولا مؤسسة حرة ، تستطيع أن تمثل ذلك الرأى ، أو تمارسه ، وحيث كل مواطن قد تساوى فى الضعف

والانعزال مع غيره ، لم يعد له ما يعارض به قوة الحكومة المنظمة ، سوى ضعفه الشخصى هذا ؟

ليس فى تواريخ فرنسا المسطورة شيء يشبه الحالة التى يمكن أن تتردى فيها هذه البلاد إذن . ولعل الأولى بنا أن نشبهها بالعصور القديمة ، وبتلك العهود المخيفة من عهود الظلم الرومانى ، عندما كانت أخلاق الناس وآدابهم قد فسدت وتقاليدهم زالت ، وعاداتهم اجتثت ، وآراؤهم تزعزعت ، وحريتهم أبعدت من القوانين حتى لم يعودوا يجدون لهم فى البلاد ملجأ يلوذون به ؛ وعندما لم يعد ثم شيء يحمى المواطنين ، ولم يعد هؤلاء المواطنون يستطيعون أن يحموا أنفسهم ؛ وعندما كانت الطبيعة البشرية ألعوبة فى يد الإنسان ، واستنفد الحكام حلم السماء ، قبل أن يستنفدوا صبر رعاياهم . إن الذين يأملون أن يعيدوا ملكية هنرى الرابع هم فى رأيى مصابون بالعمى العقلى . إنى عندما أتأمل الحالة الحاضرة التى نراها فى كثير من الأمم الأوربية ، وهى حالة تتجه إليها جميع الأمم الأخرى ، أرانى ميالاً إلى الاعتقاد بأنهم لا مناص لهم من أحد أمرين ، إما الحرية الديمقراطية ، وإما استبداد القياصرة .

أليس هذا أمراً جديراً بالتأمل والاعتبار ؟ فإن كان لابد للناس من أن يصلوا هذه النقطة حقاً ، وإن كان لابد لهم من أن يحرروا تمام التحرير ، أو أن يستعبدوا تمام الاستعباد ، وأن يسوى بينهم جميعاً فى الحقوق ، أو أن تنتزع حقوقهم كلها منهم ، إن كان حكام الجماعة مضطرين إلى أن ينهضوا بالشعب إلى مستواهم هم ، أو أن يدعوا المواطنين جميعاً يهبطون إلى مستوى دون مستوى البشر ، ألا تكون شكوك الآخرين قد زالت بذلك ، وضمائر الكثيرين منهم قد استقرت ، وتهيأ المجتمع لأن يقوم بتضحيات عظيمة من غير مشقة أو عناء ؟ ففى هذه الحالة يجب ألا يعتبر نمو الآداب والمؤسسات الديمقراطية التدريجى على أنه خير وسيلة لصيانة الحرية فحسب ، بل وسيلتها الوحيدة . ومن غير أى اهتمام بشكل الحكومة الديمقراطية يصح أن تختار الديمقراطية بوصفها أصلح وأعدل علاج يمكن استخدامه عملياً لما يعانيه المجتمع الآن من مساوىء وأدواء .

من الصعوبة إشراك الشعب فى الحكم ، وأصعب من ذلك وأشق تزويده بالخبرة التى لابد له منها ، حتى يحكم البلاد حكماً رشيداً .

لا شك فى أن رغبات الديمقراطية متقلبة ، ووسائلها خشنة ، وقوانينها ناقصة ، ولكن إن كان لا يمكن الوصول بسرعة إلى نظام وسط عادل بين حكم الديمقراطية وسيطرة فرد واحد ، أفليس الأفضل لنا أن نمتثل لحكم الأولى من أن نخضع بإرادتنا واختيارنا لحكم الفرد ؟ وإذ كانت المساواة الكاملة ، من الأمور المقدرة لنا ، أليس من الخير أن تقوم المؤسسات الحرة بعملية التسوية بين بعضها وبعض ، من أن يقوم بها طاغية مستبد ؟

إن الذين قرءوا هذا الكتاب ، ثم ظنوا أن غرضى من كتابته أن أقترح على كل

الجماعات الديمقراطية الأخذ بقوانين الأمريكيين الإنجليز وعاداتهم ومحاكاتهم فيها - لهم فى خطأ جسيم . فهم لابد أن يكونوا قد وجهوا انتباههم إلى الصورة التى عرضت بها أفكارى أكثر مما وجهوه إلى الجوهر . لقد كان غرضى أن أتخذ أمريكا مجرد مثال لأبين به أن القوانين ، وبخاصة العرف ، قد تمكن للشعب الديمقراطى من أن يظل حراً ، ولكنى بعيد كل البعد عن أن أتصور أنه يجب علينا أن نحذو حذو الديمقراطية الأمريكية فننقل عنها ما استخدمته من وسائل لبلوغ هذه الغاية . إنى لأعلم حق العلم ما لطبيعة البلاد وخبرة أهليها ، وسوابقها السياسية ، من تأثير فى دستورها السياسى ، وإنى لأعدها كارثة كبرى تحل بالجنس البشرى ، أن تقوم الحرية فى العالم كله بصورة واحدة ذات ملامح واحدة .

ولكن رأيى أن الفرنسيين إذا لم ينجحوا فى إدخال النظم الديمقراطية تدريجياً فى فرنسا ، وإذا ما تولاهم اليأس من أن يزودوا جميع المواطنين بالأفكار ، والعواطف التى تؤهلهم أولا للحرية ، ثم يسمحوا لهم بالاستمتاع بها - إنهم إذا لم ينجحوا فى ذلك فلن يكون ثم استقلال مطلقاً ، لا فى الطبقات الوسطى ، ولا لطبقة النبلاء - لا للغنى منهم ، ولا للفقير ، بل سيكون هناك استبداد يشملهم جميعاً . وإننى لأتنبأ بأنه إذا لم تقم سلطة الأغلبية المسالمة فى فرنسا ، فى الوقت الملائم ، فستقع البلاد عاجلاً أو آجلاً تحت سيطرة رجل واحد يكون سلطانه عليها سلطاناً لا يحده حد .